

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾
العاصفة
قصة غرق العبّارة المصرية
(سالم اكسبرس)
مساء يوم السبت ١٤/١٢/١٩٩١م.
كما يرويها أحد أفراد طاقمها
الذي نجا بمعجزة ربّانية.
رواية بقلم
خالد خليل الصيحي
دار القلم
دمشق

العاصفة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

العاصفة

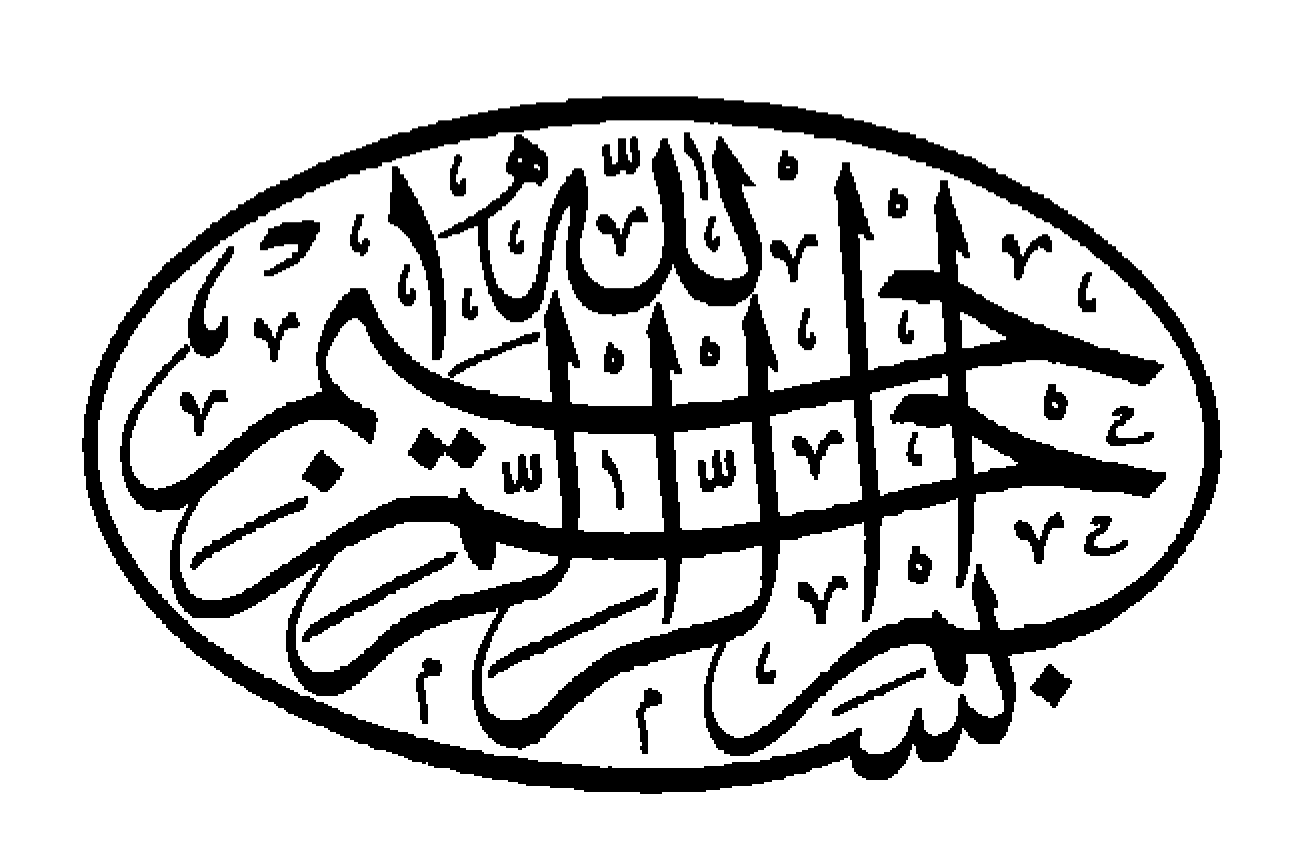
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾

قصةُ غرق العبَّارة المصرية (سالم إكسبرس)
مساء يوم السبت ١٤/١٢/١٩٩١م
كما يرويها أحدُ أفراد طاقمها
الذي نجا بمعجزة ربانية

رواية بقلم
خالد خليل الصيحي



دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة



(١) ألهاكم التكاثر: أي شغلكم عن طاعة الله التباهي والتفاخر والتمتع بمتاع الدنيا.

(٢) حتى زرتم المقابر: أي دخلتموها موتى.

مدخل

جعل أحد الزنادقة ينكر وجودَ الله الخالق في مجلس الإمام جعفر الصادق رحمه الله ويتمادى في غيّه وادّعائه.

فقال له الإمام: هل ركبتَ البحرَ يوماً؟

قال: نعم.

قال: هل رأيتَ أهوالَه؟

قال: نعم، هاجت يوماً رياحٌ هائلةٌ، فكسرت السفنَ، وأغرقت الملاّحين، فتعلَّقتُ ببعض ألواحِها، ثم ذهبَ عنّي ذلك اللوح الذي كنتُ متعلِّقاً به، فإذا أنا مدفوعٌ في تلاطم الأمواجِ حتى دفعتُ إلى الساحل.

فقال جعفر: لقد كان اعتمادُك قبلَ هياجِ الرياحِ على السفينةِ والملاَّح واللوحِ بأنَّه ينجيك، فلمّا ذهبتْ هذَه الأشياءُ عنك هل أسلمتَ نفسكَ للهلاكِ؟ أم كنتَ ترجو السلامةَ بعدَه؟.

قال الزنديق: بل رجوتُ السلامة.

قال جعفر: ممّن كنتَ ترجوها؟.

فسكت الرجل.

فقال جعفر: إنَّ الله الخالق هو الذي رجوتَه ذلك الوقت، وهو الذي أنجاكَ مِنَ الغرق.

***

ضلَّ من تدعون إلا إياه

لو وُضِعتْ سنوات عمري وشهوره وأسابيعه وأيّامه وساعاته إلا ثلاث عشرة ساعة منها فوقَ كفّة ميزان حسّاس، ثم وُضِعت الثلاث عشرةَ ساعة المستثناة فوقَ الكفة الأخرى، لرَجَحَت الكفَّةُ التي تحوي الساعات الثلاث عشرة، لأنَّ الأحداثَ التي مرَّت عليَّ فيها هي أهول وأعظم وأثرى وأعمق الأحداث التي مرَّت في حياتي حتى الآن.

بدأتْ أحداثُ تلك الساعات في ساعةٍ متأخرةٍ من مساء يوم السبت ١٤ / ١٢ / ١٩٩١م، حينما سمعتُ صدمةً شديدةً اهتزَّت على أثرها العبّارة المصرية الكبيرة المبحرة وقتئذ (سالم إكسبرس)، تراقصتْ معها أجهزة اللاسلكي في الحجرة التي

كنت موجوداً فيها بحكم عملي كضابط أول لاسلكي العبّارة التي أطلقتْ عليها وسائلُ الإعلام فيما بعدُ لقبَ (العبَّارة المنكوبة).

غادرتُ غرفةَ اللاسلكي مسرعاً بالصعود إلى غرفة القيادة، وبيدي وأنا لا أدري (كشَّاف) كنتُ أقومُ باستبدال بطاريته قبل الاصطدام بلحظات، فوجدتُ فيها الربّان (حسن مورو) قائدَ العبَّارة ومعه كبيرُ ضباطِ الملاحة المسؤول عن الوردية الملاحية حينذاك.

كانا في حالةٍ يُرثى لها. كان الربّان ممسكاً بسمّاعة جهاز الهاتف اللاسلكي (VHF) الموجود في صدر غرفة القيادة بجوار نوافذِها. كانا يتنقلان بين نوافذ غرفة القيادة ناظرين إلى خارجها وقد ارتسمَ القلقُ والاضطرابُ والحَيرةُ والاستغرابُ على وجهيهما. كانا يمعنان النظرَ في أمواجِ البحرِ المحيطة بمقدّمة العبّارة في جوف الليل، وكأنّما كانا يبحثان عن شيءٍ ما بين جوانبِ هذا الظلام الدامس الذي كانت تحدّه عن بعدٍ أنوارُ ميناء (سفاجا)، أو كأنما كانا يتابعان بجوار المقدّمةِ شيئاً ما اصطدمتْ به العبّارة التي كانت حينئذٍ متوقفة.

سألتُ الربّان مستفسراً: ماذا حدث؟.

فقال: لا أعرف يا خالد. ثم التفت غاضباً إلى كبير الضبّاط قائلاً: ماذا حدث يا مصطفى؟، كده يا مصطفى!. ثم سألني: كم الساعة الآن يا خالد؟.

فنظرتُ في ساعتي وقلت: الحادية عشرة والثلث.

شعرتُ في تلك الأثناء أنَّ العبّارة مائلةٌ على جانبها الأيمن، فسألتُ الربّان: هل ستبلِّغ الميناء بما حدث؟.

سألته هذا السؤال وأنا أدركُ أنَّه كان بالفعل على اتصالٍ بميناء (سفاجا) الذي كنتُ أرى أنوارَه بالعين المجرّدة من خلال زجاج نوافذ غرفة القيادة، إذ إننا قبل الاصطدام كنا على وشك دخول هذا الميناء، حتى إنَّ العبّارة أعلنت ذلك للركاب من خلال إذاعتها الداخلية قبل الحادث مباشرة، وطلبتْ ممن يقصدون (سفاجا) الاستعداد لمغادرة العبّارة، وهذا يعني أنَّ المسافة المتبقّية للوصول إلى ميناء (سفاجا) هي مسافة قصيرة يمكن أن يغطّيها الهاتفُ اللاسلكي (VHF) الذي رأيتُ الربّان داخل غرفة القيادة ممسكاً بسماعته، وهو جهازٌ يوجد دائماً في كلٍّ

غرف القيادة بالبواخر ليستخدمه الربابنة في الاتصال بالموانئ التي تتعامل معها تلك البواخر، وفي الاتصال بالسفن المجاورة أثناء المناورات وأثناء الإبحار، وفي حالَتَي الاستغاثة والطوارئ حين الحاجة للنجدة أو المساعدة العاجلة، وذلك في حدود المساحة التي يغطّيها الجهاز لتحقيق الاتصال.

فأجاب الربّان على سؤالي قائلاً: نعم سأبلغ الميناء.

ونادى بالفعل من خلال هذا الجهاز على شخص نسيتُ اسمَه يبدو أنَّه كان على اتّصال به قبل الاصطدام، حتى ردَّ عليه، فقال له الربان: لقد اصطدمت العبَّارةُ بشيءٍ ما، لا أعرفُ ما هو على وجه التحديد، وقد مالت نتيجةً لذلك على جانبها الأيمن (١٤) درجة، ويبدو أنَّ الميل قد استقرَّ عندَ هذا الوضع، وأريدُ منكم أن ترسلوا لنا قوارب إنقاذ.

فردَّ عليه ذلك الشخص قائلاً: ماذا حدث يا قبطان؟ بمَ اصطدمت العبّارة؟

فكرّر الربان نفس ما سبق أن قاله من كلام، وأكّد حاجته الشديدة لقوارب إنقاذ.

وبينما كان هذا الشخصُ يوجِّه تلك الأسئلة للربّان بقصد الاستيضاح كنتُ أنظر إلى الجانب الأيمن لمقدمة العبّارة من إحدى النوافذ في أقصى يمينِ غرفة القيادة، فلاحظتُ أنَّ مياه البحر بجوار هذا الجانب تبدو وكأنَّها تغلي مثلما يغلي الماءُ حينما يتعرَّضُ لحرارةٍ تكفي لغليانه، فأدركتُ أنَّ العبارة تمتلئ بالماء، وأنَّ ميلها لن يستقرَّ مثلما ذكر الربان، فقلت له: إنَّ العبارةَ تغرق.

فأجابني بدهشة مردّداً آخرَ كلمة ذكرتُها قائلاً: تغرق!!

فقلت له: أيْوَه!!

فوضع السماعةَ بسرعة وهرولَ إلى النافذة التي كنتُ أنظرُ منها، ونظرَ إلى مياه البحر المجاورة للمقدمة في جهتها اليمنى، ثم تركها وأسرع مهرولاً إلى الجهاز وأمسك بسماعته مرة أخرى، ونادى على نفس الشخص بصوتٍ متوتّر، فلمَّا ردَّ عليه قال له: إنَّ العبَّارة تغرق، وأريدُ قوارب إنقاذ بأسرع ما يمكن.

فردَّ عليه ذلك الشخصُ قائلاً: يا قبطان حسن! حاول أن تتصرَّف من عندك، فإننا لن نستطيعَ أن نصلَ إليك بقوارب

الإنقاذ قبل ساعتين من الآن، لأنّ العبّارة كما تعرف تبعدُ عنّا بمسافة (١٨ ميلاً).

فردَّ عليه الربَّان بحدّةٍ وتوتر وهو غضبان: أنا أعرفُ جيداً كيفَ سأتصرَّفُ من ناحيتي، وسأنزل الآن عندي فلائك النجاة للركاب الذين يهمني أمرُهم في المقام الأول، ولكنني أبلغكم أنني في وضع خطير، والعبَّارةُ تزدادُ مَيْلاً على جانبها الأيمن وفي طريقها للغرق، ونحن في حاجة ماسة إلى قوارب الإنقاذ بأسرع ما يمكن، وها أنا ذا أبلغكم بخطورة الموقف.

فردَّ عليه ذلك الشخص بأسئلةٍ كان الغرضُ منها الاستفسار لم يلتفت لها الربان، فقد كنا في بؤرةِ الخطر، نشرفُ على الغرق ويبارزنا سيفُ الوقت في وضعٍ شديد الحرج.

وفي تلك اللحظات.. التي أظنُّ أنها في الثواني الأُولى من الدقيقة الرابعة منذ حدوث الاصطدام، وجدتُ كبيرَ المهندسين في غرفة القيادة مرتدياً قميصَ النجاة ـ وهو قيمصٌ يوجد في جميع قُمْرات العبّارة بلا استثناء، وبأعدادٍ تغطّي أقصى عددٍ لكلٍّ من الركاب وأفراد الطاقم أثناء الإبحار ـ ويبلغُ الربانُ بأنّ

المحرّكات ـ وهي توجدُ في غرفة كبيرة تحت في القاع ـ قد غرقتْ تماماً في الماء.

ثم تنبّهت إلى أنَّ أنوارَ العبَّارة الرئيسية مطفأة، وتذكَّرتُ حينئذٍ أنني لا أجيدُ السباحة في البحر ذي الأمواج المتلاطمة، إذ بالرغم من أنني كنتُ أدرس السباحة كمادة أساسية أثناء دراستي (بالأكاديمية العربية للنقل البحري)، إلاّ أنني لم أطبّق عملياً وسط أمواجِ البحر الغاضبةِ الثائرة ما تعلَّمتُه في حماماتِ (الأكاديميةِ) الهادئةِ الساكنة.

تذكرتُ الكشاف الذي كنتُ أحمله بيدي، فأضأتُه ونزلتُ مسرعاً يسبقني ضوؤُه إلى (قُمرتي) التي تقع في الدور الذي يسفل غرفةَ القيادةِ مباشرةً، وفتحتُ بابها وتوجّهت إلى خزانة ملابسي، وفتحتُ الدرجَ المحفوظ فيه قميصُ النجاة فرأيته في الضوء بعيني. حينئذٍ سقط (الكشاف) من يدي، ووقع على الأرض وانكسر فانطفأ نورُه على الفور، وكأنَّما كان سقوطُه وانطفاءُ نورِه في ذلك الوقت هو إعلانٌ منه بأنّ مهمته قد انتهت عند هذا الحد، فمددتُ يدي اليسرى إلى القميص وأمسكتُه بسرعة، وأسرعتُ حاملاً إياه صاعداً إلى غرفة القيادةِ مرّة أخرى،

وأنا أتحسّس طريقي بيدي اليمنى مستخدماً إياها في منعي من السقوط على الأرض أو فوق الدَّرَج بسبب ميل العبّارة الذي كان قد ازداد في ذلك الوقت الحرج.

وفور صعودي أسرعتُ بلبس قميص النجاة وأنا أسأل الربّان: ماذا تريدني أن أفعل؟

فأجاب: حاولوا أن تنزلوا فلائك النجاة التي في الجانب الأيسر، لأنَّ الفلائك التي في الجانب الأيمن تأبى أن تنزل!

فأسرعتُ إلى الجانب الأيسر ومعي بعضُ أفراد الطاقم، فوجدنا مئات الركاب محتشدين فيه يسألون عن أسبابِ الحادث وعواقبِ ما نواجه.

أدركنا من أوّلِ نظرةٍ استحالة إنزال فلائك النجاة في الجانب الأيسر بسبب ميل العبّارة على الجانب الأيمن، فأخذنا نحاولُ إنزال (الرَّماثات) بدلاً من فلائك النجاة.

(والرَّماثُ) هو أسطوانةٌ من (الفيبرجلاس) محكمة الغلق، يخرجُ منها حبل، إذا ما شدَّه أحدٌ فإنَّ هذه الأسطوانة تنشقُّ وتنفتح وينتفخ منها زورقٌ مطاطي دائري الشكل يمكن أن يحمل

عدداً من الأشخاص تحدّده جهة الصُّنْع ، وأظنُّ أنَّ حمولة الرّماث الواحد من رماثات العبّارة كانت تتراوح بين ثمانية أفراد إلى اثني عشر فرداً. . ويوجد في هذا الزورق مجدافان يمكّنان ركابه من الإبحار، ومرآة عاكسة لأشعةِ شمس النهار تستخدم لإرشاد السفن أو الطائرات إلى موقع الرماثِ في البحر أثناء الإبحار، وطلقاتٍ إرشادية، والمسدس الذي يطلقُها، وشعلاتٍ يدوية، وحقيبةِ إسعافاتٍ أولية، علاوة على ماءٍ عذبٍ صالحٍ للشرب، وبسكويت قيمتُه الغذائية عاليةٌ ومركَّزةٌ وغنيٌّ بالفيتامينات والأملاحِ والسعراتِ الحرارية ويمنحُ آكلَه طاقةً كبيرةً غيرَ عادية.

والواقع أننا لم نكن وحدنا نحن أفراد الطاقم أثناء محاولة إنزال تلك الرماثات في الظلام، بل كان يساعدُنا في ذلك عددٌ من الركاب، حتى إنَّ أحدَهم صعدَ فوقها في محاولةٍ لإنزالها معرّضاً حياته آنذاك لخطر السقوط من ارتفاعٍ هائل في ماء البحر المتلاطم الأمواج، ربّما لأنَّه أدرك بالفطرة أنَّ الخطر قادمٌ توّاً لا محالة وأنَّه لا أملَ في النجاة إلا بإنزال هذه الأسطوانات التي كان يحاول أفرادُ الطاقم إنزالها، والتي أشكُّ في أنه كان يعرِفُ أنّها

تتحول إلى زوارق نجاة مطاطية إذا ما شدَّتْ الحبالُ الخارجةُ منها.

مضت دقيقتان أحسستُ خلالهما بصعوبةِ إنزال تلك الرمّاثات، فقد كانت مربوطةً بحبال، وكانت العبَّارة قد ازدادَ ميلُها بدرجةٍ رهيبة تعكسُ صورةَ الخطرِ القادم توّاً لا محالة، حتى إنني شعرتُ بدوار وأنا أنظرُ إلى البحر في الظلام، فتركتُ الجناحَ الذي توجد فيه تلك الرماثات وسرتُ بصعوبةٍ بالغة متوجّهاً إلى غرفة القيادة، مستنداً في طريقي على الأسوار والجدران التي كنتُ أقابلُها، فوجدتُ الربَّان متشبّثاً بمنتصفِ جدار صدر تلك الغرفة الذي توجَدُ فيه نوافذُها، فقد كان من الصعب حينئذٍ أن نحفظَ توازننا إلا باستخدام أيدينا في التشبُّثِ بالأسوارِ أو الجدرانِ التي كانت تجاورنا.

ووجدتُ داخلَ غرفة القيادةِ امرأةً عجوزاً تجاوز عمرُها السبعين عاماً تتوسَّل إلى الربان قائلة: خذني معك يا بني، أنا لا أريد أن أموت!!

فردَّ عليها الربّان بنظرةٍ أشكّ في أن تكون قد فهمتْ معناها،

لأنها كرّرتْ نفسَ العبارة متوسلةً إليه مرّةً أخرى.. كانت نظرة الربان تقول: أنا معكِ يا أمي، فنحن في سفينة واحدة، وما حدث لنا فوق طاقتي كربانٍ وكإنسان، ومَن منّا يستطيع أن يهربَ أو يفرَّ من الموتِ إن جاء؟!

كان الربان يكرّرُ النظرَ في صمتٍ وسكون من النافذة التي تتوسَّطُ نوافذ غرفة القيادة، اقتربتُ ونظرتُ منها إلى مقدّمة العبّارة، فوجدتُ أربعةَ أخماسها مغموراً في الماء، وقد اختفى تماماً النصفُ الأيمنُ للمقدمة تحت سطح الأمواج.. كان الربّانُ في حالةِ ذهولٍ شديد. لم يدُرْ بيني وبينه حديث، فقد كانت تطوراتُ الوضعِ المتدهورِ خطيرةً وسريعةً وغنيةً عن أيٍّ إيضاحٍ أو تفسير، وكنّا ندرك أبعادَها بالتأكيد.. كانت قد مرَّت حوالي ست دقائق ونصف منذ بداية الحادث.

تركتُ غرفةَ القيادة صاعداً إلى جناحها الأيسر بصعوبةٍ بالغةٍ حتى وصلتُ إلى السور الحديدي الذي يقع على حافته، وأمسكتُ بأحد الأعمدة الرأسية المقامة عليه. كان يقفُ حولي وعن يساري على امتداد السطح في هذا الجانب مئاتٌ من الركاب وبعض أفرادِ الطاقم، معظمُهم كانوا يرفعون أيديهم

ممدودةً رأسياً إلى أقصى امتداد وكأنما يودون لو لمسوا بها السماء، وأكفّهم كانت مفتوحة إلى الله عسى أن ينجيهم الرحمن، وبعضُهم كانوا يمسكون بأسوار وأعمدة هذا الجانب في انتظار الغرق القادم.. كانوا جميعاً يقولون بإخلاص: «لا إله إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله».

كنتُ أردِّدُ معهم بنفس الإخلاص ما يقولون من أذكارٍ للرحمن بقلبي وعقلي ولساني وكل كياني في صمت دونَ أن يصدرَ مني أيُّ صوت.

كانت السحب سوداء تغطّي السماء، والليل شديد الظلام، والبرد يلسعنا آنذاك، والأمواجُ عاليةٌ ثائرةٌ في حالة هياج، وكنت أسمع صفيراً مرعباً ومخيفاً للرياح. نظرتُ حينئذٍ إلى الأفق في الظلام فلم أستطع أن أفرّق بين البحر والسماء، فتارةً أرى الدنيا كلّها بحراً أمواجه شديدة السواد، وتارة أخرى أراها كلها سماءً تامة الإظلام، كدتُ آنذاك أن أصابَ بإغماء.

صيحات التكبير والتوحيد أخذت تعلو منْ حولي وتملأُ سمعي.. سمعتُ امرأةً تقول: يا ربّ لا تحكم على أولادي باليتم.

وسمعت أخرى تصرخ، ورجلاً يبكي. شاهدتُ رجلاً كان يقفُ بجواري تماماً كما لو كان شبحاً، وقد اصفرَّ وجهُه فأمسى لونُه أصفرَ كلون قشرة الليمون حين ينضج، ووقفَ شعرُ رأسِه كما يقفُ شعرُ القِطَّةِ في لحظات الخطر.

شعرتُ أنَّ القيامةَ قد قامت أو على وشكِ أن تقوم، وأنَّ الحسابَ لا ريبَ قادمٌ بأمرِ مَنْ يقول للشيء: كن فيكون.

لم تطل هذه اللحظات أكثرَ من ثوانٍ معدودات، فسرعانَ ما انقلبت العبّارةُ على جانبها الأيمن، ثم غرقت في الحال بنا في الماء، وأخذت تغوصُ بسرعةٍ مرعبةٍ في الأعماق، وأنا أغمضُ عينيَّ بشدّةٍ في الظلمات، وأسمعُ بأذني خريرَ الماء، وأشعر أني أفارقُ الحياة.

كنتُ قد أخذتُ نَفَساً عميقاً قبل الغرق مباشرةً، وكتمتُه أثناءَه، ليس بهدف النجاة، وإنما بهدف أن أعيشَ لحظاتٍ أخرى في الحياة أشهدُ فيها أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله وأتضرَّعُ إلى الله الغفور الرحيم أن يغفر لي ذنبي ويرحمني قبل أن تصعدَ إليه روحي، إذ كنتُ أشعرُ أنَّ هذا النَّفَس المكتوم في صدري هو

ولا ريبَ آخرُ أنفاسِ حياتي، يا له من شعورٍ رهيب يجعلُ الصدرَ يضيق.

ظللتُ أكرّرُ بقلبي وفمي مغلقٌ في الماء الشهادةَ والاستغفارَ والاسترحام.. والعبَّارةُ تغوصُ بي بسرعةٍ هائلةٍ ومرعبةٍ في الأعماق، وعيناي مغلقتان بشدةٍ في الظلمات حتى استقرّت بي تحت في القاع، فتركتُ العمودَ الذي كنتُ أمسكه بيدي، فوجدتني أطفو بجسمي حتى صعدَ رأسي فوق سطح الماء. لم أتوقف أثناءَ لحظاتِ الغرقِ وخلال لحظاتِ الطفو عن الذكرِ والدعاء.

كانت تلك اللحظات التي أمضيتُها في الظلمات ذهاباً وإياباً بين سطحِ الأمواج والقاع هي أهولُ وأصعبُ وأعسرُ وأخطرُ لحظاتِ الثلاث عشرة ساعة على الإطلاق، حتى إنني أشعرُ الآن بالعجز التام عن وصفها أو الحديثِ عن أهوالها، وأعتذر عن ذلك.

سمعتُ بعد طفوي أصواتاً عديدةً تذكرُ الرحمن، فانشرحَ صدري واطمئنَّ قلبي كثيراً بذكر الله، وأفرغتُ النفَس الذي

كتمتُه فغطس رأسي تماماً في الماء، فأيقنتُ أنَّ قميصَ النجاةِ ليس اسماً على مسّمى، ولا أدري لماذا كنتُ أتوقّعُ هذا قبلَ غرق العبّارة حتى إنّ جُمَل الشهادة والاستغفار والاسترحام التي كنتُ أقولها بقلبي مناجياً بها ربي وهي تغوص بي في الأعماق لم أكن أتوقّع في قرارِ نفسي أن يمتدَّ عمري فأكرّرها مرةً أخرى وأنا أسبح بين الأمواج.

أدركتُ أنّه لا بدَّ لي من السباحة وسَطَ الأمواجِ العاليةِ حتى أعيش لحظاتٍ قادمة الله وحدَه الأعلمُ بطولها أو قصرها.

سبحتُ سباحة تمكّنني فقط من التنفّس وسْط الأمواج العاتية حتى أبقى أطول فترة ممكنة في الحياة الزائلة. لم يكن يهمّني حينئذٍ أن أقطعَ مسافاتٍ في الماء، ولم أسبح آنذاك في اتجاهٍ ثابتٍ ضد تيار الأمواج، رغم أنَّ أنوار ميناء (سفاجا) كانت تبدو واضحةً على مرمى بصري كلما اعتليتُ قِمّةَ إحدى الموجات، فقد كنتُ أدركُ جيداً وأعلمُ تماماً أنني لن أستطيعَ على الإطلاق أن أسبحَ ثمانيةَ عشر ميلاً في الماء إلا إنْ رأيتُ المستحيلات الثلاث: (العدو الوفي) و(الغول) و(العنقاء) يسبحون بجواري في ذاك الظلام!

سلَّمتُ أمري للرحمن، وتركتُ نفسي للأمواج تدفعني حسبما ترغبُ وتقذفني حيثُ يشاء الله.

لم تكد تمرُّ دقيقتان حتى تلاشت أصواتٌ كثيرةٌ من تلك التي كنتُ قد سمعتُها فور الطفو تذكرُ الله، لم أعد أسمعُ إلا أصواتاً قليلةً كانت تأتي من بعيد، ثم تلاشت هي الأخرى بعد قليل. لم أكن أعلمُ ما إذا كان أصحابُها قد غرقوا في الماء أم أنهم ما زالوا على قيد الحياة يسبحون خلف الأمواج.

اختفت أنوارُ (سفاجا).. وجدتُ نفسي وحيداً لا يؤنس وحدتي في ذاك الظلام الموحش إلا الله السلام المؤمن.

لم يتوقَّف كلٌّ من قلبي وعقلي ولساني عن ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، إذ كنت أشعر حينذاك أنَّ سطح ماء البحر الملامس للهواء هو سطحٌ يفصلُ بين آخرتي ودنياي، وأنني للآخرة أقرب مني للأولى، فمن تحتي توجد أسماك قرش البحر الأحمر المشهورة بتوحّشها وأسماك البراكودا المعروفة بشراستها والتهامها للحم الآدمي، ومن بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن كل جانبٍ

تصارعني أمواجٌ لا طاقةَ لي بمقاومتها على الإطلاق، كما أنَّ قتامةَ ظلامِ الليلِ المريبة وصفير الرياح القويةِ الشديدة وهديرِ الأمواج في تلك اللحظاتِ العصيبة كانت تزيد من بشاعةِ صورةِ الخطرِ الأليمة، بل وترسم لها البعدَ الثالثَ بكل تفاصيله المفزعةِ الرهيبة وأعماقه المروعة المخيفة.

شعرتُ وقتئذٍ أنني ربّما كنت أغطُّ في نومٍ عميق وأعيشُ في أضغاثِ حلمٍ مرعبٍ وسخيفٍ ولا أستبعد في أي لحظة أن أفيقَ فجأة فأجدُ نفسي مغطّى فوق فراشي داخل (قُمرتي) في العبّارة، وأراها حينئذٍ مبحرة لا غارقة، إذ كنتُ أتساءلُ بِحَيْرةٍ قاتلة: هل من المعقولِ ما أمرُّ به من أحداث جسامٍ الآن؟!، هل حقاً غرقت العبَّارةُ العملاقةُ التي كنت أعملُ فوق سطحها منذ دقائقَ قليلةٍ أكادُ أذكرُ عدَدَها؟!، وهل أنا أسبح حقاً بالفعل الآن في الأخطار وأوشك بين لحظة وأخرى على مفارقة الحياة؟!

لم أكد أصدّقُ، وإن كنتُ لم أعترض على الإطلاق على قضاء وقدر الله الذي لا توجد ذرة شك أو أدنى ريب في وجوده وقدرته وعظمته وحكمته ولطفه ورحمته.

كنتُ موقناً أنَّه إنْ كانت الأخطارُ تتربَّصُ بي من تحتي ومن كلِّ جانبٍ فإنَّ الله فوقي، وإنْ أرادَ أن ينقذني وينجّيني لانتُشلتُ بمشيئته من بحرِ الأخطارِ إلى برِّ الأمان: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

تذكرتُ أنني لم أصلِّ بعد صلاة العشاء، إذ كنتُ أؤجّلُ صلاتها غالباً إلى منتصف الليل قبل أن أنام، فندمتُ أشدَّ الندم كما لم أندم من قبل لأنني أخّرتها ولم أصلّها في وقتها، وضاق نتيجة لذلك صدري، ثم خطرَ ببالي بفضلٍ وهدىً من ربي أن أصلّيها تواً في الحال وسط الأمواج، فانشرحَ لذلك صدري بعدما كان قد ضاق.

بدأتُ فوراً صلاةَ العشاء وسطَ الأمواج بتكبيرة الإحرام بعد أنْ رجوتُ الله أن يعتبرَ غرقي في الماء بمثابة وضوء لها، استخدمتُ قلبي وعقلي ولساني في أدائها، فشعرتُ بسكينةٍ واطمئنان لم أشعر بمثليهما منذ أن غرقتُ في الماء.

لم أُولِّ وجهي شطرَ المسجدِ الحرام أثناء أدائي لشعيرةِ تلك الصلاة، كنتُ أسبحُ مع تيارِ الأمواج، وكانتِ الأمواجُ توجّهني حيثُ يشاء الله.

صلّيتُ أربعَ ركعاتٍ طيّباتٍ في أمان الله، وحين جاء موعدُ التسليم للخروج من تلك الصلاة تذكّرتُ حالي قبل تكبيرة الإحرام فخشيتُ أن أفقدَ نعمتَي السكينةِ والاطمئنان، كان صعباً عليّ آنذاك أن أقول للملك الذي عن يميني: السلام عليكم ورحمة الله، ظللتُ متردّداً للحظات، ثم خطر ببالي أن لا أخرجَ من تلك الصلاة، وكان هذا الخاطر بهدى الهادي وفضل الرحمن، وعزمتُ على أن يكونَ دعائي لله وسؤالي إياه النجاة هو جزءٌ من تلك الصلاة الخالصة لوجه الله، حتى إذا ما أدركني الموتُ أكون في صلاة لله عز وجل. وانشرح لذلك صدري واطمئنَّ به قلبي، وشعرتُ في نفسي برضا من الأعماق عن قضاء وقدر الرحمن وعن كلٍّ ما كنتُ أواجهُ من أهوال، بل ورضا عن موتي إن كان مكتوباً لي آنذاك.

استهللتُ دعائي بدعاء سيدنا يونس عليه السلام حين نادى ربه في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، كنتُ أردّدُه بقلبي وعقلي ولساني وكل كياني، توسّلتُ وتضرَّعتُ إلى الله السلام أن يستجيبَ لي مثلما استجابَ لسيدنا يونس عليه السلام، برغم كوني عبداً خطّاءً وكون سيدنا يونس نبياً معصوماً.

ثم رددتُ بعد ذلك أذكاراً وأدعيــةً كثيرة؛ منهــا: «لا إله إلا الله»، و«الله أكبر»، و«لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، و«اللهمَّ اغفر لي وارحمني وأنتَ خيرُ الراحمين»، و«اللهمَّ إنَّكَ عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعـفُ عني» ودعاء آخِرِ ســورة البقرة: [٢٨٦]:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، وآيــة في ســورة الأنعام [١٧] تقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

كنتُ من آنٍ لآخر أدعو الله أن يغفرَ لجميع الغرقى بمغفرته ويرحمهم برحمته ويدخلهم جناته، وأن يغفرَ لي زلاّتي ويرحمني مثلهم حينما ألحق بهم، وكنتُ في ذات الوقت أحمدُه بقراءة سورة الفاتحة لأنني كنتُ ما أزالُ بخيرٍ حتى ذلك الوقت رغم ما كان يمسّني من ضر، ولأنَّه عزَّ وجلّ قد أتاحَ لي حينئذٍ فرصةً طيبةً لأسأله الرحمةَ والعفوَ والمغفرة.

شعرتُ آنذاكَ وأنا أسبحُ في الماءِ وسطَ الأمواج بأنني الوحيدُ الذي لا يزالُ على قيد الحياة من بين كل أفراد الطاقم والركاب، إذ لا أثر يظهر لأحدِهم في الظلام. كنتُ موقناً أنني سألحقُ بهم لا محالة، وكان أملي في مغفرةِ ورحمةِ ربّي سبحانه وتعالى إن رجعتْ إليه روحي في حالة غرقي أكبرَ كثيراً من أملي في النجاة والبقاء على قيد الحياة الذي كان يرتكز على أن أقاومَ إن استطعتُ بمشيئة وفضل الله الرحمن كل ما كنتُ أواجه من أخطار إلى أن تصلَ قوارب الإنقاذ بعد ساعتين كما وعد الميناء الربان في آخر اتصال.

لم أكن أدعو الرحمنَ وسطَ أمواجٍ هادئةٍ ساكنة، بل كانت هائجةً ثائرة... تعرَّضتُ للموت عشراتِ المرات، وللرعب مرات ومرات.

فما أكثر المرّات التي تعرَّضتُ فيها وأنا أسبحُ في الماء لشدٍّ عضلي في ساقي أو ذراعي مما يضطرني لتغيير وضع سباحتي بحيث أسبحُ على ظهري بدلاً من صدري، فما أكادُ أغيّرُ وضعي حتى تغمرني موجةٌ عاليةٌ فتملأُ بمائها أنفي وفمي، فأشعر على أثر ذلك بألمٍ شديدٍ في مؤخّرةِ رأسي لا تطيقُه نفسي، فأغطسُ في الماء

وأنا أقاوم الغرق بضعف تام، وأوشك على السعال والصراخ من فرط ما أشعر به من آلا م، لكنني كنت أكتمُ الصراخَ في صدري، وأحرصُ على إغلاقِ فمي وأنا أغالبُ نفسي، وأحاول أن أغيّر وضعَ سباحتي، ثم أخرج رأسي فوق سطح الماء لأسعلَ وأستنشقَ الهواء بعد أن أكون قد نجحتُ بفضل الله في أن أغير وضعي وأسبح على صدري بدلاً من ظهري، فأجدُ آثار الشد العضلي قد زالت تقريباً بفضل ربي، فأخفف العبءَ قليلاً قدر المستطاع عن تلك الساق أو الذراع حتى يعاودني الشدُّ العضلي من جديد فأعيدُ الكرةَ مرّةً أخرى بنفس التفاصيل.. كنتُ كلَّما نجوتُ من تلك الأخطار التي كانت تصاحبُ الشدَّ في إحدى عضلاتِ الأطراف أقرأُ سورة الفاتحةِ أمّ الكتاب لأحمد الله الرحمن على أنني ما زلتُ بخير بفضله وحده فقط لا غير، وكنتُ في كلّ مرةٍ أقرأ فيها فاتحة الكتاب أتم قراءتها.

كنتُ أحسُّ أحياناً بأشياءَ ذات ملمسٍ غريبٍ تدفعني في الماء، فأشعرُ برعبٍ تام ويقشعرّ بدني ويتصلّبُ جسدي ويفقد مرونته للحظات، إذ كنتُ أفكرُ بخوفٍ ورعبٍ وسطَ هذا الكرب والغمّ وأتساءل بريبٍ في صمت: تُرى هل ما يدفعني هو سمكةُ قرشٍ

تستعدُّ لافتراسي، أم دلفين يحاولُ إنقاذي، أم جثة إنسان تقذفني بها الأمواج؟!

لم يكن الظلامُ الدامسُ القاتمُ الذي جعل آنذاك أمواجَ البحرِ الأحمر جبالَ حبرٍ أسودَ يمكّنني من الإبصار، بل كان يزيدُ من هول تصوّري لهذه الأشياء التي كنتُ أخشاها جميعاً، حتى الدلفين صديقُ الإنسان لم أكنْ أريدُه أن يلمسني على الإطلاق في تلك اللحظات!!.

كنتُ إذ أحسُّ بهذا الرعب أو الخوف أو القلق أقرأُ سورة الفلق ودعاء: «أعوذ بالله وقدرته من شرِّ ما أجدُ وأحاذر» فيطمئنُّ قلبي وتسكنُ نفسي بفضل ربي، فإذا ما توقف الدفعُ أقرأ سورة الفاتحة لأحمدَ الله عزَّ وجل على أني ما زلتُ بخيرٍ وبمنأى عمّا يثيرُ القلقَ والرعب برغم ما مسّني من غمٍّ وضر.

أخذتُ أدعو الله أن ينجيَني بحقِّ أيِّ عملٍ طيِّبٍ عملتُه في حياتي، وبحقِّ دعاءِ والدَيَّ لي، وبحقِّ دعاء جدّتي ـ أم أبي ـ وعمّتي إذ كانتا رحمهما الله تقولان لي بمناسبةٍ ومن دون مناسبة أنهما دائمتا الدعاء لي. كنتُ أسألُ الله ربّي أن يفرّج كربي، ويكشفَ همّي وغمّي بحقِّ أيّ دعاءٍ طيبٍ دعاه لي أحدُ الصالحين في حياتي.

كنتُ أشعرُ أحياناً من آنٍ لآخر بضيقٍ شديدٍ ممّا أنا فيه وضجرٍ ممّا ألاقيه، فأخافُ أن أموتَ على هذه الحالةِ التي كنتُ أخشى أن تكونَ بنزغٍ من الشيطان الرجيم ليجرّني إلى سوءِ الخاتمة وأنا أوشك على الرحيل من الحياة الدنيا، فأستعيذُ منه بالله السميع العليم وأقرأ سورة الشرح وسورة الناس ودعاء: أعوذُ بكلماتِ الله التامة من كلِّ شيطانٍ وهامّة، ثم أقرأ سورة الفاتحة لأحمدَ الله الذي لا يُحمَد على مكروهٍ سواه على الكرب الذي أعيش فيه والغمّ الذي ألاقيه، فأشعرُ فوراً ويا للعجب برضا في قلبي وتهدأ في لمح البصر نفسي وأشعرُ أنَّ الشيطانَ قد ابتعدَ عني. كنتُ أريدُ أن ألقى ربّي وأنا راضٍ عمّا قضى وقدَّرَ لي.

كنتُ أتضرَّعُ إلى الله أن ينجيني بحقِّ القرآن الذي سمعتُه بأذني وأحببتُه بقلبي خلالَ فترة عملي فوقَ سطح العبّارة الغارقة، إذ كنتُ في تلك الفترة دائمَ الاستماعِ إلى إذاعتَي القرآن الكريم المصرية والسعودية.

كنتُ أرى أمامي عن بعدٍ بينَ حينٍ وحين نوراً ينطفئ ويضيءُ بانتظامٍ عدّة مرات، فأظنُّ أنّه (شمندورة) ـ أي: وتد يظهر فوق سطح ماء البحر مثبت في قاعه بثقل، ويعتليه مصباح يرسل

إشارات ضوئية متقطعة بصورة منتظمة ومحددة كل دقيقة واحدة، لإرشاد السفن ليلاً بل ونهاراً إلى خطوط السير الآمنة التي توصلها إلى أهدافها سالمةً، ولإبعادها عن مواطن الخطر التي قد تؤدّي إلى هلاكها ـ فأسبحُ في اتجاهها، وأشعرُ أنني بوضوح أكثر أراها، ويزدادُ هذا الوضوح كلّما اقتربتُ منها، ثم فجأةً تختفي ولا أجدها!، فأبحثُ ببصري عنها، وأسبحُ في الاتجاه الذي أظنّه يوصلني إليها، فلا أجدُ لها أثراً وكأنها كانت وهماً، وأكتشفُ أنني كنتُ أسبحُ وراءَ سرابٍ في البحر يشبهُ سرابَ البر!

كنت أقرأ سورة (الإخلاص) التي تعدِلُ ثلثَ القرآن من باب توحيد الله الرحمن. لم أنقطع عن الدعاء وقراءةِ القرآن لحظةً واحدةٍ على الإطلاق. كنتُ إن انتهيتُ من دعاءٍ أقرأ سورةً قصيرةً من سور القرآن، وإن انتهيتُ من قراءة السورة أقرأ آية من آيات الرحمن ، وإن قرأت الآية أنادي الله بدعاء... كنتُ أقرأ وأكررُ بعضَ الأدعية أو السور أو الآيات عسى أن يكشفَ الله كربي وينجيَني من غمّي، حسب المخاطر التي كانت تواجهني وتهاجمني، أو الخواطر والهواجس التي كانت تخطر ببالي أو تقفزُ في ذهني.

كنتُ أحياناً وأنا أقرأُ بعض سور القرآن، أو وأنا أدعو الله الرحمن ببعض الدعاء أشعرُ ـ ويا للعجبِ ـ بسعادةٍ وسرور يفوقانِ كلَّ الحدود، لم أشعرْ بمثليهما من قبلُ في كل عمري منذ أن ولدتني أمي.

تذكرتُ في تلك الأثناء في الظلام وسطَ الأمواج وما كان يواجهني من أهوال أشياءَ بسيطة أو شديدة البساطة، كنتُ أفعلُها في الأيام الخالية، يمكن أن توصَفَ رغم بساطتها الشديدة بأنها طيبة، فشعرتُ بسعادةٍ بالغة، ودعوتُ الله راجياً إيّاه أن ينقذني وينجيني بحقٍّ تلك الأفعال البسيطة جداً جداً، إن كانت مقبولةً عنده ـ جلَّ شأنه ـ رغم بساطتها الشديدة جداً.

بينما كنتُ أكرِّرُ دعاءَ (اللهمَّ إنَّكَ عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي)، تذكَّرتُ أنني لم أنتقم في حياتي ممن كرهوني وعادوني وحاولوا بشتّى الطرق إيذائي ـ وهم بفضل الله الرحمن قليلون جداً جداً ـ رغم أنَّ القَدَرَ قدَّم لي فرصاً ذهبيةً للانتقام من بعضهم وعلى رأسهم أشرُّهم، فشعرتُ وأنا أكرِّرُ هذا الدعاءَ أنَّ الله العفوَّ الكريم ربّما يعفو عني لأنني عفوتُ كما يحبُّ عنهم، وأحسستُ بحلاوةٍ في القلبِ تَسُرّ رغمَ ما كان يمسّني من ضرٍّ وغمٍّ وهول.

أنهكت الأمواجُ وما مرَّ بي من أحداثٍ قواي، كنتُ أقاومُ بلا استسلام، فمن العسير على الإنسان أن يكونَ شهيقُه نفسَ ماءٍ لا هواء.. مرَّ عليَّ وقتٌ كدتُ أدعو الله عزَّ وجلَّ قائلاً فيه: «اللهمَّ إنْ كانَ الموتُ خيراً لي فأمتني وارحمْنِي ممَّا ألاقيه».. كان العذابُ بالماء لا يقلّ أبداً بأيٍّ حالٍ عن العذابِ بالنار!.

فجأةً شعرتُ وكأنَّ الدنيا من حولي مضاءةً بنور بدر، فاندهشت إذ إنني شاهدتُ القمرَ هلالاً مرةً وحيدة قبل أن يختفي بعد ذلك خلفَ سُحُبٍ كثيفة، فمن أين إذن أتت السماءُ بنور بدر؟!

وبمرور الوقت ازدادَ النورُ الذي بدا وكأنَّه نورُ الفَجْر، فنظرتُ في ساعتي فوجدتُها تعملُ وتشيرُ عقاربها إلى السادسة صباحاً إلا عشر دقائق!، فتملكني مزيجٌ من الدهشة والعجب، إذ كيف مرَّ كلُّ هذا الوقت وأنا في الكرب دون أن أشعر أو أحس به على الإطلاق؟!، وكيف رحل الليلُ بكلّ ما كان فيه من ظلامٍ وأهوالٍ وساعاتٍ طوال وأنا ما أزال على قيدِ الحياة؟!. سبحان الله الذي لا إله إلا هو المحيي المميت نور السموات والأرض.

شعرتُ أنَّ الله سبحانه وتعالى معي، فحمدتُه كثيراً من قلبي،

فهو وحده الذي أضاءَ السماءَ الدنيا بنوره وقدرته من فوقي، وهو وحده الذي جعل الليلَ بسرعة البرق يمضي ، دون أن أدري، وأحسستُ أنّي أسبحُ في بحر من فضله لا في البحر الأحمر.

كان الفجرُ إعلاناً عن زوالِ الليلِ وظلامه، وشروق الأملِ وأحلامه، وإضاءة بانوراما الخطر التي كانت سوداء مظلمة في الليلة الماضية، ورؤيتي بوضوح في النور لأبعادها الحقيقية ولمحتوياتها بالألوان الطبيعية.

شاهدتُ بعيني جبالاً تبدو من بعيد في ارتفاع خزانة ملابس طفل صغير، كان واضحاً أنَّ أميالاً بحرية عديدة تحول بيني وبينها، ووجدتُ نفسي أتساءلُ مرتاباً: لِمَ لَمْ تأتِ قواربُ الإنقاذ التي وَعَدَنا بها الميناء حتى الآن؟!، قطعاً تلك الجبال التي أراها عن بعد هي ولا ريب جبالُ البحر الأحمر، لكن ما الذي يبرهنُ لي أنّها جبال ميناء (سفاجا) الذي رأيتُ بالأمس أنواره؟!، لقد كنتُ في أغلب ما مرَّ بي من وقت أسبحُ مع تيار الموج، ومن الممكن بالتأكيد أن يكونَ قد جرفني إلى مكان بعيد!

نظرتُ حولي فلم أجد أثراً لسفينة واحدة عابرة أو لأحد

قوارب الصيد الصغيرة المبحرة، فخطر ببالي بفضل وهدى ربّي سبحانه وتعالى أن أسبحَ في اتّجاه الجبال التي أراها، عسى أن يحملَني إليها ـ دون اعتبارٍ لطول المسافة ـ مَنْ جعلَ مِنْ قبلُ سرعةَ الوقت كسرعةِ سنا البرق.

العقلُ والمنطقُ والحسابُ أكدت لي آنذاك استحالة وصولي للجبال، غير أنَّ إيماني بالله سبحانه وتعالى، وبرهانه لي على قدرته اللامحدودة على الإطلاق بسرعة ذهاب الليل ومرور ساعاته الطوال وحفظي من الأخطار حتى تلك اللحظات.. جعلاني أكذّبُ العقلَ والمنطقَ والحساب، لأنَّ الله ربي أعظمُ وأقدرَ وأعلى وأكبر.

بدأتُ السباحةَ بصعوبةٍ في اتجاهٍ عمودي على الجبال، ضد تيارٍ من الأمواج يصنعُ زاويةً حادةً مع هذا الاتجاه.

كان الموجُ أكثر علوّاً وأكبرَ ثورةً وأعظمَ خطورةً من ذي قبل، وكأن علوَّه وثورتَه وخطورتَه هي عوامل تتناسبُ طردياً مع مرور الوقت.

كان الأملُ في الله الصمد ـ أي: الوحيد المقصود بالدعاء ـ هو الأملُ الأول والأخير، بل والوحيد على الإطلاق.

كنتُ إن سبحتُ مسافةً قدرُها ما يقربُ من خمسة أمتار مثلاً للأمام تردّني الأمواج إلى الخلف مسافةً قدرُها نحو أربعة أمتار.. كنتُ أشعرُ أني لا أتقدّم في الماء ولا أقترب من الجبال، ومع ذلك لم أيأس من رحمة الله الرحمن ـ أي: الممتلئ بالرحمة التي تسعُ المؤمنَ والكافرَ وكلَّ الأشياء ـ واستمررتُ في الأخذِ بالأسباب المتاحة لتحقيق معجزةِ الوصول إلى الجبال، فبذلتُ أقصى ما عندي من طاقة وجهد، وتركتُ الباقي وهو (كل شيء!!) على الله ربِّ العباد، الذي يصنعُ وحدَه المعجزات ولا يعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

لم أتوكّل من قبلُ في يوم من الأيام على الله (الوكيل) ـ أي: المفوَّض إليه الأمرُ ـ مثلما توكَّلتُ عليه سبحانه وتعالى في تلك اللحظات.

مضت دقائقُ كثيرة وأنا أسبحُ بصعوبةٍ شديدة ضدَّ الأمواج راجياً رحمةَ الرحمن ـ حوالي نصف ساعة ـ لم أنقطع خلالها لحظةً واحدةً عن الدعاء، شعرتُ بعدها بأنَّ قواي قد خارت ومقاومتي قد انهارت حتى أنَّ ساقاي بدأتا تغوصان في الماء، حاولتُ أن أرفعهما، ليس من أجل أن أصنعَ بهما ضرباتٍ أقوى

وأكملُ المشوار، وإنَّما من أجل أن أسبح سباحة هادئة قدر المستطاع مع تيار الأمواج تمكنني فقط من أن ألتقط أنفاسي ولا تجهد عضلاتي وتبقيني أطول وقت ممكن على قيدِ الحياةِ، كما كان الحالُ في الظلام قبلَ حلول النهار، إلا أنني لم أتمكَّن بجهدي من أن أعيدَ ساقيَّ إلى وضعهما الأفقي، واكتشفتُ أنّ هذا الوضع لا يصنعه الماءُ كما كنتُ أتصوّرُ من قبل، وإنَّما تصنعه القوى البدنية والعضلية والعصبية للإنسان، والتي يمكن كلها أن تنهارَ في حالةِ الإجهاد وفي حالةِ نفادِ مخزونِ الجسم من الطاقة والسعرات.

شعرتُ آنذاك أنّني سألحقُ بمشيئة الله بكلِّ الغرقى والأموات، وأنَّ نهايتي في هذه الحياة ستكونُ في دائرةٍ مركزُها هو موقعي في الماء ونصف قطرها لن يزيدَ عن بضعةِ أمتار. يئستُ وقتئذٍ من إدراك النجاة، وإنْ كنتُ لم أيأسْ من روحِ الله، وأيقنتُ أنني قد ارتكبتُ أكبرَ الأخطاء التي ليس لها علاج حينما سبحتُ في اتجاه الجبال ضدَّ أمواج لا طاقة لي بمقاومتها على الإطلاق وأنا أظنُّ أني بفعلي هذا آخذُ بالأسباب، مع أنني كنتُ أعلم أنَّ تلك الأسباب ما هي إلا أوهام، وقلتُ في نفسي بعدما رضيتُ بقَدَري: «قَدَّر الله وما شاء فعل».

حمدتُ الله كثيراً على ما مرَّ بي من أحداث، وشكرتُه من كلِّ قلبي بعدما صارتْ تفصل بينه وبيني بضعة أنفاس لأنَّه استمعَ إليَّ سبعَ ساعاتٍ طوالٍ ناجيتُه خلالها بالدعاء، ورجوتُه أن يغفرَ لي ويرحمني حينما تصعدُ إليه روحي، وأنْ يغفرَ لجميعِ الغرقى ويرحمهم مثلي.

وبينما بدأتُ أشربُ رغماً عنّي من مياه البحر بصفاء قلب واظمئنان نفس، وأنا أستقبل الغرق برضا تام وإيمانٍ باستحالةِ الفرار من قضاء وقدر الله، لمحتُ زورقاً مطاطياً على قمّة إحدى الموجات العالية، ثم اختفى بعدَ ذاك خلف جبال الأمواج.. لم أصدّق عيني التي أرتني ليلاً أكثر من مرة (شمندورة) وهمية ترسلُ إشاراتٍ ضوئية إلى أن رفعته لي موجة تالية مرة ثانية.

قلتُ: يا إلهي! أملٌ جديد وأنا مشرِفٌ على غرقٍ أكيد!

وجدتُ نفسي أسبح تجاه الزورق سباحةً طبيعية، بل وقوية، لا أدري كيف طاوعت ساقاي عقلي واستعادتا وضعهما الأفقي؟!

كنتُ أخشى أنْ يتحوَّل الأملُ إلى سراب مثلما كانت تتحول

(شمندورة) الظلام، ثم أيقنتُ أنَّ الأملَ ليس سراباً لمّا اقتربتُ من الزورق وأضحيتُ أراهُ بوضوحٍ تام في ضوء ووضح النهار، لمحتُ فوقه عدداً غيرَ قليلٍ من الأشخاص، أخذتُ أقتربُ منهم سابحاً وأنا أصرخ فيهم راجياً منهم أن يقتربوا مني، إلاّ أنهم لم يستجيبوا لطلبي، وأشاروا لي بأيديهم يدعونني لأنْ أقتربَ أنا منهم، ففعلتُ حتى وصلتُ إليهم، فقالوا لي: الحمد لله على سلامتك يا قبطان.

فقلتُ: الحمد لله.

كانت وجوههم غريبة باستثناء اثنين منهم كانا من طاقم العبّارة.

كنتُ قد أُنهِكْتُ تماماً، فأمسكتُ بحبلٍ وجدتُه يخرجُ من الزورق حتى لا أبعدَ عنه، ثم حاولتُ أن أصعدَ فوقه، ففشلت لأنني كنتُ قد وهنت، ثم ساعدني مَنْ فوقه وفشلوا إذ لم يكن النجاح بالسهل، حاولتُ مراراً وتكراراً بمساعدتهم وسقطتُ مرةً بعد محاولة بعيداً عن الزورق الذي كنتُ سأفقده حينئذٍ تماماً ثم أغرق، لولا أنَّ يدي لامست قدراً تحت الماء الحبلَ الخارج منه،

فأمسكتُ به مرةً أخرى، واستخدمته للوصول لحافة الزورق، ثم أعدتُ محاولة الصعود فوقه بَيْدَ أني فشلت، وبدتْ مسألةُ صعودي فوقه صعبةً وليس لها حل، إلا إن شاء الرحمنُ أن يرحمَني من عذابِ الماء، وكانتْ كلُّ محاولةٍ تنتهي بفشلٍ توهن قوتي وتضعفُ عزيمتي، إلى أن كُلِّلَت بفضل الله الرحمن إحدى المحاولات بالنجاح.

لم أكد أصدِّق أنني أخيراً وبعدَ أن مكثتُ في العذابِ طويلاً أضحيتُ أجلِسُ فوق زورق، ولله الفضلُ كلُّه والحمدُ كلُّه من قبل صعودي فوقه ومن بعده.

كان فوق الزورق ثلاثة عشر فرداً، منهم ثلاثة من أفراد الطاقم، كنتُ واحداً منهم، والباقون من ركّاب العبارة، أحدُهم كان أجنبياً، يوحي وجهُه بأنه من إحدى دول شرق آسيا، لم تكن مواقعنا فوق الزورق بعد صعودي فوقه تحفظ توازنه في الماء، فطلبتُ من بعض الأشخاص تغييرَ أو استبدالَ أماكنهم فوقه من أجلِ تحقيق الاتزان، ففعلوا، كان واضحاً أنَّ عددنا فوقه أكبر من حمولته.

أخبروني بأنَّ هذا الزورق هو رماثٌ مقلوبُ الوضع، إذ طفى وهو مغلقٌ بعد غرق العبّارة على الفور، فشاهده أحدُ الركاب ممن فوقه فأمسك به، وشدَّ راكبٌ آخر ـ دونَ أن يقصد أن يفتحه ـ الحبل الخارج منه، فانفتح وانتفخ منه زورقُه المطاطي في وضع مقلوب غير عادي، فركباه والتقطا في ظلام الليل كلَّ مَن قابلاه سابحاً فيما بعد.

كانوا في حالةٍ يُرثى لها، قلت لهم: ادعو الله أن ينجينا.

قالوا: لم ننقطع عن الدعاء منذ غرق العبارة في الماء.

رددنا أذكار توحيدٍ وتكبيرٍ وتسبيحٍ لله رب العالمين وأدعية حمدٍ وشكرٍ له عزَّ وجلّ، وكرّرناها بصوتٍ واحدٍ مرتفع.

لاحظتُ أنَّ الرماث ممتلئ بالماء، فقد كان له عمقٌ رغم انقلابه بفعل أوزان ركابه، فقلتُ لهم: يجب أن ننزح هذا الماء من الرماث، وإلا غرقنا لو ازداد بفعل موجةٍ واحدةٍ عالية أو عدة موجات متتالية.

قالوا: كنا ننزحه بفردةِ حذاء وقعت منا خارج الرماث في الماء.

خلعتُ فردتي حذائي، ومددت لهم يدي بهما، فلم يرحّبوا بذلك وقالوا: انزحه أنت، لأننا في غاية الإعياء.

فقلت لهم: أنا أكثركم إعياءً، إذ مكثتُ أسبح في الماء أكثر من سبعِ ساعات حتى أُنهكْتُ تماماً.

لم أكن ألتمسُ لهم العذر إلى أن تذكَّرت أنهم قد غرقوا ـ مثلما غرقت ـ مع العبَّارة في ماء البحر، ثم طفوا من تحت الماء بملابس مبتلة، فركبوا الرماث وتعرَّضوا لبرد تلك الليلة، فأصيبوا بنزلاتِ بردٍ حادة جعلتْ بعضهم ـ منهم أحدُ أفراد الطاقم ـ لا يتمكنون من الحركة أو الكلام وتصطكّ أسنانهم ويرتعدون بضعف تام.

قلت لهم: إنَّ الله لن ينقذنا إلا إن أدَّينا كلَّ ما بوسعنا أن نفعله دون كسل أو ملل.

فاستجاب اثنان يستطيعان، أحدهما فرد من فردي الطاقم، وكانا من وجهة نظري يكفيان، إذ إنَّ المهم أن تعمل فردتا الحذاء في نزح الماء.

لم يكن حينئذٍ سهلاً أو يسيراً على أيٍّ منا أن ينزحَ ماءَ الرماث

بفردة حذاء، إذ إنَّ رفع فردة الحذاء وهي مملوءة بالماء كان بالنسبةِ لنا أشبه برفع الأثقال، لذا كنتُ أطلبُ أن يشاركَ شخصان آخران في نزح الماء إذا ما أعلن الأولان عجزهما عن الاستمرار، كنتُ أطلبُ هذا الطلبَ من أولئك الذين أشعرُ أنهم يستطيعون بذل جهد وما زالوا يملكون طاقة لم تنفد بعد، وأستثني منه أولئك الذين نفدت طاقاتُهم وترتعد أجسامُهم.

لم نكن في مأمنٍ من الخطر، إذ بالإضافة إلى وضع الرماث المقلوب وحمولته الزائدة عن الحدّ المسموح فإنَّ الأمواج العالية العاتية الهائجة الثائرة كانت تتلاعبُ به، فقد كانت كلُّ موجةٍ ترفعه فوقَ قمّتها فتُخلُّ توازنه وتجعلنا نشعرُ أنّه يكاد ينقلب في قاعها فتسقط قلوبنا من الرعب في أقدامنا، فنتضرَّعُ إلى الله ربنا بأصواتٍ عاليةٍ مرتفعة عسى أن ينجينا، فيجيبنا من يسمعُ دعاءَنا ويعلمُ حالَنا.

كانت المياهُ في قاع الرماث تزدادُ بفعلِ هذه الموجات، وكنَّا ننزحها على الدوام أولاً بأوّل في الحال بفردتي الحذاء.

سمعنا أزيزَ طائرة يأتي من بعيد، كانت الشمسُ ساطعة والساعةُ

تقترب من الثامنة. التفتنا تجاه الأزيز، فشاهدنا طائرةً مروحية تقتربُ منّا، أخذنا نشيرُ إليها ونصفرُ لها حتى مرَّت من فوقنا، فهلَّلنا وكبَّرْنا الله سبحانه وتعالى حتى رحلتْ عنّا، فقلت لهم: من المؤكّد إن شاء الله تعالى أنها سترشد زورق إنقاذٍ إلى موقعنا.

لم تكد دقائقُ قليلة تمر حتى شاهدنا سفينتين صغيرتين عن بُعد، فحمدنا الله عزَّ وجل وشكرناه من أعماق قلوبنا، وأخذنا نصفّر ونشيرُ لهما بأيدينا، ثم شاهدنا قارباً أحمرَ صغيراً فوقه أشخاص بجوار إحداهما، وقد اصطفَّ فوق سطحها عند جانبها الأيسر عدد من أفراد طاقمها يرمون لمن في القارب (شوامي) ـ أي: حبال قطرُها كبيرٌ وغير عادي بلغة البحر، وتستخدم لربط السفن بأرصفة الموانئ ـ، ثم شاهدنا أفراد هذا الطاقم وهم يساعدونَ مَن في القارب على الصعود إلى سطح السفينة، فأدركنا على الفور أنَّ هذا القارب هو أحد فلائك النجاة الكبيرة التي وجدنا نحن أفراد الطاقم صعوبة شديدة في إنزالها من فوق سطح العبارة قبل غرقها، وأنَّ من في الفلوكة مثلنا، وحالهم كحالنا، كتب الله لهم الآن النجاة من الهلاك، وأنَّ هاتين السفينتين موجودتان في تلك المنطقة من أجل الإنقاذ.

ثم أبحرت السفينة التي حملت مَن في الفلوكة مبتعدةً عنّا، فاعتقدنا أن الأخرى هي التي ستأتي إلينا، ولم نتوقف عن الصفير في اتجاهها والإشارة لها.

مرت دقائق كثيرة.. وجدنا بعدها السفينةَ المتبقية تبحِرُ مبتعدة، كدنا أن نجنَّ من فرط المفاجأة، فقد كنَّا نظنّ أنها ترانا وتعلم مكاننا، بل وربما تسمع صفيرنا، وأنها ستأتي ولا ريب لإنقاذنا، فأخذنا نشيرُ لها ونصفّر بقوةٍ في اتجاهها، إلا أنَّها ظلّت تبتعدُ عنّا، ثم أخذنا في صمتٍ نراقبها بأعيننا.

شعرنا بإحباطٍ شديد.

والطـريفُ أنَّ أحد ركّاب الرمـات نظرَ إلى الجـبال التي كـنّا نـراها عن بُعد في ارتفـاع خزانة مـلابس أطفال، ثـم فاجـأنا وسط هذا الإحباط بأنْ قال: ما تيجوا نـروح للجبال دي!!

كان واضحاً للعيان وقتذاك أنَّ الجبال تبعدُ عنا بأميال بحريةٍ كثيرة أضعاف الأميال التي كانت تبعدنا عن كل سفينة، علاوة على أننا لم نكن نملك مجاديفَ تمكّننا من الإبحار بسهولة، إلاّ

إن كان هذا الراكبُ يقصدُ آنذاك أنْ نستخدمَ يداً من أيدينا في الإبحار بالرماث بدلاً من كلِّ مجداف!

ولأنَّه كان يتكلَّم بمنتهى الجِد الذي يبعدُ مقدار مئة وثمانين درجة على طول الخط عن المزاح أو الهزل، فقد سألته: كيف نصل إلى تلك الجبال البعيدة مع أننا لم نتمكن من الوصول إلى تلك السفينة القريبة؟!، كما أننا لا نملك أي مجاديف كما تعلم!!

فقال: وماله الجبال أحسن!!

لم أفهم آنذاك ماذا كان يقصد!!، بل ما زلتُ حتى الآن لا أفهم!!

لم تكف الأمواجُ بعد ذاك عن اللعب بالرماث، كانت تقذفُ فيه من آنٍ لآخر قليلاً أو كثيراً من الماء، لم نكف نحن عن نزحه بفردتي الحذاء، كانوا إنْ تكاسلُوا عن ذلك أصرُخُ فيهم منبّهاً إياهم إلى خطورةِ تراكم هذا الماء الذي ساعدتُهم في نزحِه في بعض الأحيان.

لم ننقطع عن الدعاء وسؤال الله النجاة.

ابتلعَ الأفقُ السفينةَ التي ابتعدت عنّا، كنّا نراقبها بعيوننا حتى اختفت مِنْ على مرمى أبصارنا.

ثم ظهرت الطائرةُ مرةً ثانية، وأخذت تلفُّ وتدورُ من جديد بعيداً عنّا، كنّا نراها في حجم طائرٍ كبير نودُّ لو اقتربَ منّا، ثم أخذتْ تظهرُ وتختفي مراراً وتكراراً ونحن بعيوننا نراقبها، إلى أن ظهرت مرة أخرى وأخذتْ تقتربُ منّا، وكان ذلك يسعدنا، ظنّاً منّا أنها ستنقذنا، حتّى حلّقت فوق رؤوسنا، فأخذنا نشيرُ إليها ونصفّر في اتجاهها عسى أن يرانا أو يسمعنا قائدها، إلا أنها أخذت تبتعد في جوفِ السماءِ حتى اختفت، ولم يظهر لها بعد ذلك أبداً أي أثر.

بعد فترة ظهر زورق، ومثلما أنَّه بالخبز يحلمُ الجوعان ظنناه أول الأمر زورق إنقاذ، فكنّا نشير إلى ركابه بأيدينا فيبادلوننا الإشارة إلى أن اقتربَ فاكتشفنا أنّه رماث آخر من رماثات العبّارة، لم يكن فوقه إلا أربعة ركاب، فقلتُ: حسناً فليأخذوا من رماثنا عدة أشخاص حتى تخفَّ حمولته قليلاً ويصبح أكثر أماناً.

لكنني فوجئتُ حينما وجدتهم تجمّعوا عند حافة رماثهم، وأخذوا يصيحون بهستيريةٍ شديدةٍ موجّهين صياحهم لي: نريدُ أن نكون بجانبك يا قبطان ـ إذ كان الزي الذي أرتديه هو زي

البحرية التجارية ـ والركاب معتادون أن يلقّبوا الضباط الذين يلبسون هذا الزي فوق سطح العبّارات بهذا اللقب بغضّ النظر عن الكتافات التي تحدّدُ وتخصّصُ الوظائف.

فقلت لهم: نحن ننتظر النجاة مثلكم، ووضعنا يشبه وضعكم، وحالنا ليس أفضل من حالكم، فرماثكم معدولٌ آمن ورماثنا مقلوبٌ مهدّد، وعددكم أقل كثيراً من حمولة الرماث العادي، بينما يفوقُ عددُنا حمولته، وأظنُّ أنكم قد وجدتم في رماثكم المعدول أشياء لم نجدها نحن في رماثنا المقلوب، أي أنكم أكلتم بسكويت النجاة، وشربتم ماءً عذباً، ومعكم مجدافان وغير ذلك، لذا أطلب منكم أن تأخذوا من رماثنا عدة أشخاص لن يهددوا وضعكم الآمن.

لم يقتنعوا بكلامي لهم، بل ازدادت هيستيريتهم، فاقترحتُ على من معي أن أذهب أنا إلى رماثهم، فرفض اقتراحي بعضهم، وشعرتُ أنّ الرماثين لو اقتربا من بعضهما فسيقفز الأربعة إلى رماثنا وسيكون الغرق مصيرنا، فاضطررتُ إلى أن أحذّرهم من أن يقتربوا وأهدّدهم حتى يبتعدوا، كان التهديدُ يخرج فقط من لساني ولم يقرّه عقلي أو قلبي، ومن فضل الله علينا أن أبعدت

الأمواج الرماثين عن بعضهما قبل أن تحدث كارثة أخرى.

وبالرغم من أنّ زي البحرية التجارية الذي كنت أرتديه كاد أن يؤدي إلى كارثة في ذلك الحين، إلا أنه بفضل الله علينا كان سبباً في أن ينفّذَ من معي في الرماث ما أطلبُ منهم من طلبات حتى ولو كانت تلك الطلباتُ تأتي أحياناً بصيغة الأمر.

كان كلُّ مَنْ معي يدركون خطورة انتقال الركاب الأربعة إلى رماثنا آنذاك، إلا الراكب الذي كان يودُّ لو أبحرنا برماثنا إلى الجبال، فقد قال حين اعترضت على هذا الانتقال: وماله يا أخي ما نساعد بعضنا!!

وفشلتْ كل المحاولات التي بذلت مني ومن غيري في إقناعه بخطورة هذا الانتقال على جميع الأفراد.

مرَّ بعد ذلك وقت طويل لم نرَ فيه سفينة واحدة، ولم تظهر فيه طائرة، ولم نكن نرى أو نتابع خلاله إلاّ رماث الركاب الأربعة، تارة يختفي خلف جبل من جبال الموج، وتارة أخرى نراه محمولاً فوق قمة جبل آخر.

كنتُ أصرخُ فيهم من آنٍ لآخر كلّما رأيتهم تهاونوا أو تكاسلوا

في نزح الماء من قاع الرماث قائلاً: يجب أن ننزح هذا الماء وإلا غرقنا جميعاً. وأحياناً كنتُ أطلبُ نفس الطلب من الأجنبي فكان يستجيب على الفور.

بدأ يتقلّص بعد ذلك عدد المستجيبين لنزح الماء من قاع الرماث، فقد أُنهكنا تماماً وأصبحنا جميعاً نعجزُ عن نزحه بفردتي الحذاء أو حتى بفردة واحدة.

وأضحتِ الشمسُ ساطعةً فوقنا معلنةً حلول ظهرِ ذلك اليوم، واستطاعت بأشعتها أن تدفئنا، لكنّها لم تستطع أن تعيدَ إلينا صحتنا وقوّتنا، وأذكرُ أنَّ آخرَ مرة نزحت فيها الماء كان يساعدني ذلك الراكب الذي كان يودُّ لو أبحرنا برماثنا إلى الجبال، إذ بينما كنتُ أملأ فردة الحذاء بالماء من قاع الرماث وأعطيها له مملوءةً ليلقي ما فيها في البحر، لاحظتُ أنَّ الماءَ في القاع لا يقل منسوبه بمرور الوقت بل يزداد بفعل الموج، فقلت: ألم تلاحظوا أنَّ الماء في قاع الرماث لا يقل برغم النزح؟!

فقالوا: نعم نلاحظ هذا الأمر!

فقلتُ: أخشى أن يكون الرماث قد انثقب!!

فقالوا لي: ربما!!

ثم اكتشفنا بعد ذلك أنَّ هذا الراكبَ كان يلقي ماء الحذاء داخل الرماث!!، إذ لم تعد لديه أدنى طاقة أو أية مقدرة تمكّنه من أن يمدَّ يده إلى حافته ليلقي الماء خارجه، كان ثقل فردة الحذاء المملوءة بالماء أكبرَ من احتمالنا ومقدرتنا آنذاك.

الواقع الذي كنا نعيشه كان يدعونا لأن نفقد الأمل في النجاة، لكننا لم نفقد الأمل في الله، ولم نكن ننقطع أو نتوقف لحظة واحدة عن الدعاء إلا من أجل حديث حول حال الرماث أو حول الأمل في النجاة.

لم يكن يشذُّ عنا في مجال الحديث إلا نفس الراكب العجيب، إذ كان من آنٍ لآخرَ يقول: أنا مش عارف لمّا ح ارجع البلد ح أقول لهم إيه على الفلوس إللي ضاعت!!

لم نكن نعلم شيئاً عن أمواله التي فقدها، أو بلده التي يضمن الرجوع إليها، ولم نكن حينئذٍ نريد أن نعلم عن ذلك شيئاً، لكنَّ عبارته هذه كانت تستفزّنا، حتى إنّ أحد الركاب تحرّك من مكانه على أثر هذا الاستفزاز وقام وضربه باللكمات، فاضطررتُ أن

أمد يدي لأضربَ الراكب المعتدي حتى لا يحدث اشتباك بالأيدي فوق الرماث.. وصرختُ فيهم قائلاً: ما حدّش يضرب حَدْ هنا.

بدأنا نستسلمُ للنوم، بل للموت!. وتركنا الرماثَ يمتلئ بماء الأمواج التي كانت قممها تتلاعب بنا وترشّنا بقليلٍ أو بكثيرٍ من مائها آنذاك. تركنا الأخذ بالأسباب ـ من فَرْطِ ما كنا نشعرُ به من إجهاد وإعياء ـ إلا الدعاء، فوَّضنا أمرنا كلَّه إلى الله راضين بما يشاء.

كنَّا نفتحُ عيوننا من آنٍ لآخرَ إمَّا خوفاً من انقلاب الرماث بسبب اهتزازه وفقده لاتزانه فوق قمم الأمواج أو أملاً في رؤية فرج الله، وكنَّا حينَ الاستيقاظ بل وربّما أثناء المنام نواصِلُ الدعاءَ راجين لطف الله ورحمة الرحمن.

أليست تلك سفينة مبحرة؟!

هكذا صاح أحدنا وهو يشيرُ بيده في اتجاهٍ من الاتجاهات، دقّقنا النظر على مرمى البصر حيث يشيرُ هناك، ونطقنا جميعاً بصوتٍ واهنٍ يعكسُ ضعفنا التام: نعم سفينة.

كانت السفينة تبدو من بعيد في حجم علبة كبريت صغيرة.

عقدنا على تلك العلبة ـ أقصد السفينة ـ آمالاً كبيرة. سألنا الله ألاّ يخيّب آمالنا، ورجوناه أن يكشفَ الضرَّ الذي مسّنا، وينجينا من غمّنا، ويفرّج كربنا.

أخذنا نراقب بعيون شبه مفتوحة علبة الكبريت وهي تنمو وتكبر بصعوبة حتى صارت في حجم قارب صغير، أخذ أيضاً ينمو ويكبر حتى أصبح في حجم صندل كبير من صنادل النيل.

كان أملُنا في النجاةِ ينمو ويكبُر كلَّما نمت السفينة أو كبرت.

قلت لهم: إنَّ هذه الفرصة هي آخرُ فرص النجاة، يجبُ أن نصرخ بأعلى أصواتنا من الآن، ونشيرُ بأيدينا عسى أن تسمعنا أو ترانا السفينة.

فردَّ عليَّ ذلك الراكب الذي أغضبنا من قبل بكلامه قائلاً: لكن أنا صوتي ضايع خالص!!

فقلت له بصوت غاضب أوهنَ وأضعفَ من صوته الواهن: إذ كنّا مصابينَ بكل أعراض الأنفلونزا والبرد وتبدو علينا أعراض الشيخوخة والهرم رغم أنَّ أعمارنا حينئذٍ كانت تقع كلها في العقد الثالث من العمر: ألم تتحدَّث الآن؟!، وهل تسمع صوتَ

أحدنا أقوى من صوتك أنت؟!، يا (بني آدم) إنني أقول لك إنَّ هذه الفرصةَ هي آخرُ فرصةٍ في حياتنا.

نهره معظم مَنْ في الرماث ولاموه على ما قال. ثم أخذنا نشيرُ بأيدينا ـ وهو يفعل معنا ـ ونصرخُ جميعاً بأعلى أصواتنا الواهنة المبحوحة أو (الضائعة خالص) على حد تعبيره، وكان هو في الصراخ أولنا.

اقترحَ فردُ الطاقم الذي كان يرتعدُ وتصطك أسنانه على فرد الطاقم الآخر ـ وكان يرتدي قميص نجاة ـ أن يتحرّك ببطء حتى يتوسط الرماث، ثم يقف ويخلع قميص نجاته ذا اللون البرتقالي ويرفعه بيديه وهو واقف، عسى أن يرانا ضابط تلك السفينة، ففعل هذا. لم تكن لدي أدنى قوة تمكّنني من أن أقف وأفعل مثلما فعل.

أخذت السفينةُ تقترب ومعالمها تتضح، ونحنُ نصرخُ بفرح في اتجاهها ونشيرُ إليها، والثواني تجري بسرعة، والأمل يتضاعف بشدة وقلوبنا تنبض بقوة بفعل الفرحة.

لم تكد تمضي على هذا الحال دقائق معدودات حتى اتضحت

لنا معالمُ السفينة، وعرفت أنها إحدى القطع الحربية التي نراها في الموانئ المصرية.

عدلت السفينةُ مسارها إلى اتجاهنا، فأدركنا أنها ترانا فبكينا.. بكينا من قلوبنا ـ رغماً عنّا ـ وأخذنا نصرخ بكلمات حمدٍ وشكرٍ لله ربنا. ولا أدري هل كان هذا الصراخ دعاءً خالصاً لله، أم نداءً للسفينة لتستمرّ في الإبحار في نفس الاتجاه أم كلا الأمرين في ذات الوقت؟!

أخذت السفينةُ تواصل الاقتراب معلنةً وصولَ رحمة الرحمن، ونحن نواصل البكاءَ ونصرخ بتلك الكلمات الطيبات، ثم رأيتُ بعضَ ركّاب الرماث يتحرّكون إلى الجانب الذي تقترب منه سفينة النجاة معرّضين الرماث في تلك اللحظات لخطر الانقلاب في الماء، فصرختُ فيهم قائلاً: عودوا إلى أماكنكم، سنغرق جميعاً.

فلما عادوا، قلت لهم: يجب أن نصعد سُلَّم السفينةِ بنظام يسمحُ باستمرار اتزان الرماث، وإلا انقلب بنا في الحال.

فأوهموني وهم يبكون أنهم بكلامي مقتنعون، حتى اقتربت

السفينة تماماً منا، وتوقّفت بجوارنا، ورمى إلينا طاقمُها أطرافَ شوامي ـ أي: حبال ـ من أجل أن نستخدمها لتساعدنا في الاقتراب من سلّمها، فإذا بمعظمهم ينسون ما تمّ بيننا من اتفاق، ويتّجهون في هلعٍ إلى الجانب المجاور لأطراف تلك الحبال، وهم يتسابقون في الصعود والفوز بالنجاة.

أخذتُ أصرخُ فيهم وأحذّرهم، فلم يفلح صراخي فيهم أو تحذيراتي لهم، وكاد الرماث أن ينقلب بنا لولا رحمة ربّنا.

وحينما جاء دوري لصعود سلم السفينة، رفعتُ ساقي اليسرى بصعوبة لأضعها على درجة من درجاته، فأصبتُ بشدٍّ عضلي فيها، ثم حاولتُ وأنا أقاوم بضعف أن أمسك جانب السلم بيدي اليمنى، فلم تقوَ أصابعها على الإطباق عليه، فسقطتُ في ماء البحر، وأخذت أغطس وأطفو وأشرب منه، كما لم أشرب من قبل وأنا أقاوِمُ الغرقَ بضعفٍ ووهن.

سمعتُ أحد أفراد طاقم السفينة الذين كانوا ينقذوننا يقول لزميله: ح يغرق زي إللي قبله.

ألقى إليَّ أحدُهم بغاصة ـ وهي حبل طويل ينتهي أحدُ طرفيه

بدائرةٍ من نفس طول الحبل تضيق بشد الطرف الآخر منه ـ وطلب مني أن أمرِّرَ رأسي ويدي من هذه الدائرة حتى تصبح تحت ذراعي ويلف محيطها حول صدري، فحاولت بَيْدَ أني فشلت، ثم حاولت وأنا على وشك الغرق فنجحتُ بمشيئة الله وتوفيقه ولطفه ورحمته وفضله وكرمه.

ثم شدّوني من الطرف الآخر من الحبل، ورفعوني باستخدام هذا الطرف مثلما يرفعون أي ثقل، وأنا أساعِدُهم بوضع إحدى قدمي فوق إحدى درجات سلّم سفينتهم ومحاولة إمساك درجة أخرى بأي يد، كانوا يبذلون في الشد جهوداً كبيرة، وكنتُ أشفق عليهم لأنني من أصحابِ الأوزان الثقيلة! ومن حُسْنِ قدَرِهم وطيب قدَري أنَّ سطح سفينتهم الحربية التي كانت كاسحةَ ألغام لم يكن مرتفعاً كثيراً عن سطح الماء.

وجدتُ نفسي فوق سطح سفينة النجاة. لم أكد أصدّقُ آنذاك أني نجوتُ بفضل الله من الهلاك. تنفَّستُ الصُّعَداء. كدتُ أكذّبُ عيني التي كانت ترسِلُ إلى مخي حينذاك صوراً كلها تؤكّد لي أنِّي قد نجوتُ من الموت والعذاب وصرتُ أعيشُ بفضل الله في أمان. فكّوا كلاًّ من الغاصة وقميص النجاة من حول

صدري، ومَدَدْتُ على السطح ظهري وأنا أنظرُ إلى السماء مخترقاً إياها ببصري بنظراتِ حمدٍ وشكرٍ وامتنان، فوالله العظيم ما أنجاني إلا هو (الرحمن الرحيم).

أحضر لي أحدُ أفراد طاقم السفينة كرسياً، وطلب مني أن أجلسَ عليه بدلاً من تمديد ظهري على السطح. قلتُ له بصوتٍ كله ضياع ـ على رأي صاحبنا ـ: من فضلك اتركني على وضعي، فإنَّ فيه راحتي.

أحضروا لي بسكويتاً من ذلك الموجود في قوارب ورماثات النجاة، فأكلتُه برفقٍ شديدٍ وأنا أتألَّم وأتحملُ الآلام، كان مذاقُه أمرُّ من أيِّ دواء، كان لساني كلّه جروح من أثر أملاح الماء، وكان البسكويتُ يكوي هذه الجروح كما لو كان مكواة، كنتُ آكله رغم ذلك أملاً في أن تستردَّ العافية جثتي الهامدة!

نظرتُ حينئذٍ في ساعتي، فوجدتُ الساعةَ تقتربُ من الواحدةِ بعدَ ظهرِ ذلك اليوم.

قالوا لي: احمد الله على سلامتك ونجاتك، فقد كدتَ أن تغرقَ بجوار سلّم الإنقاذ مثلما حدث لأحد الأشخاص.. صعدت روحُه ونحن ننقذه.

قلتُ: الحمدُ لله.

مرَّ بذاكرتي في تلك الأثناء عذابُ الساعاتِ الثلاثَ عشرةَ في أقل من ثانية، فاستمتعتُ بنعيم النجاة في كل الثواني التالية.

أخبروني أنَّ هذه السفينة الحربية هي كاسحةُ ألغام مصرية، ولمَّا علم ربّانها أنني من طاقم العبارة الغارقة دعاني للجلوس في غرفة القيادة، فصعدتُ إليها بمساعدتهم بصعوبة بالغة.

وفي غرفة القيادة مددتُ جسمي على أريكةٍ مريحة، وأحضروا لي بطانية ووجبة غذائية خفيفة، وطلبوا مني أن أروي لهم باختصار حقيقة ما مرَّ من أحداث فوق سطح العبّارة منذ بدء الحادث حتى غرقها في الماء، فرويتُ لهم ما حدث، فدُهشوا لما علموا أنَّ العبارة غرقت في الماء بعد مرور سبع دقائق فقط على الاصطدام!!

ثم سجَّلوا اسمي في ورقة تحوي أسماء الناجين المُلْتَقطين بواسطة الكاسحة، فسألتُهم عن عدد كل الناجين إن كانت توضحه الأسماء المسجَّلة، وعن أسماء الناجين من طاقم العبَّارة، فأخبروني بأسماء أفراد الطاقم الموجودين على سطح

الكاسحة، وقالوا لي: إنهم لا يعرفون بالتحديد عدد كلِّ الناجين لأنَّ عملية البحث والإنقاذ تشارك فيها كاسحة أخرى، وأخبروني بنجاة ركاب رماث الأربعة.

سمعتُ بعدئذ مشادَّةً كلامية خارج غرفة القيادة، أخبروني أنَّ أحد الركاب يصرُّ على أن يقابلني إصراراً، فخرجتُ إليه وأنا أجرُّ قدمي جرّاً، فوجدته ذلك الراكب الذي ضربته حين ضرب الراكب ذا الصوت الضائع.

تقابلنا بالأحضان والقبلات والبكاء. قال: جئتُ لأطمئنَّ عليك ولأشكرك.

فشكرته من كلِّ قلبي، ثم نزل.. فدخلتُ غرفة القيادة، وعدت إلى الأريكة.

طلبوا مني بعد ذلك أن أنامَ كي أرتاح، فلمَّا حاولتُ النومَ رأيتُ ما لم أكن أتوقَّع أن أراه على الإطلاق!! ففتحتُ عينيَّ بسرعة، ثم أغضمتُهما مرةً أخرى بعد فترة فرأيت المنظرَ نفسَه!!.. بحرٌ عالية أمواجه كالجبال السود تتحرّك بغضب واضطراب، وظلام دامس شديد السواد لا يُمكِّن العين من الإبصار، وسحبٌ

قاتمة كثيفة تغطي السماء في الظلام، ورياح قوية شديدة أسمع لها صفيراً، وللموج الذي تدفعه هديراً، ففتحتُ عيني، فابتعدت الصور عن مخيّلتي، وراح الصوتُ من أذني، ثم حاولتُ النومَ مرةً تلوَ الأخرى، فكنت في كل مرة أرى تلك البانوراما المروّعة، فخشيتُ أن تلازمني كعقدة طوال عمري.

استيقظتُ بعد ذلك فزعاً على أثر هزّةٍ عنيفة للكاسحة، ظننتُها الهزّة الأخيرة للعبَّارة الغارقة، كانت الساعة حوالي السادسة من مساء ذلك اليوم، لا أدري كيف نمت؟! لكن أغلب الظن أنني نمتُ قبل أن أغمض عيني!، لأنني كنتُ أرى تلك البانوراما كلّما أغمضتُ عيني!

أخبروني أنَّ الكاسحة على وشك دخول ميناء (سفاجا)، كنتُ أحملُ همَّ النزول إلى رصيف الميناء من غرفة القيادة.

وصَلَتْ كاسحةُ الألغام إلى الميناء بعد نحو ساعة من استيقاظي فوقفتُ بصعوبةٍ بالغة استعداداً لنزولي، فشعرتُ بآلام في كل عظمة من عظامي وكل عضلة من عضلاتي، وأخذ جسمي يرتعد إذ كان الطقس بارداً، وأحسست أنني أكاد أسقط منهاراً

وكأنني أحمل فوق رأسي وكتفي أثقالاً لا طاقة لي بحملها، فطلبتُ من ربّان الكاسحة أن يسمحَ لي باستعارة البطانية فسمح لي باستعارتها، فلم أكد أغطّي بها رأسي وألّفها حول جسمي حتى رأيتُ أمامي الراكبَ الذي صعد ليطمئنَّ عليّ ويشكرني، كان يعلمُ أن ليس في بدني أية قوة أو أدنى طاقة تمكنني من النزول من فوقٍ إلى تحتٍ وحدي، فجاء ليساعدني ـ أسأل الله أن يجزيه خيراً عني ـ فنزلتُ بمساعدته هو ومساعدة عسكري من طاقم الكاسحة بصعوبة بالغة من غرفة القيادة في أعلى مبنى الإعاشة إلى الدورِ الأرضي.

وقابلتُ في هذا الدور عدداً من أفراد الطاقم ممّن لم يكونوا معنا في الرماث، تقابلنا بالبكاء والعناق والقبلات.. أخذ بعضُ الركاب يسلّمون علينا فنسلّم عليهم، ويصافحوننا فنصافحهم، ويشدّون على أيدينا فنشدّ على أيديهم، كان أكثر ما قلناه أثناء هذا اللقاء: الحمد لله.

ثم خرجنا من مبنى الإعاشة إلى سطح الكاسحة، وقبل أن أنزل منه إلى أرض مصر وجدتُ منظراً عجيباً لم أره من قبل!، وجدت صفوفاً من كاميرات تصوير كثيرة يرتفع بعضها فوق

بعض، ولا يظهر من ورائها أصحابها، حتى إنها كانت تبدو وكأنَّها محمولةٌ من قِبَلِ أشباحٍ مجهولة!. أخذت فلاشاتها تضيء وتطفئ وشغلت أبصارنا بومضاتها الكثيرة، وكان يقفُ بجوارها في استقبالنا جموعٌ من الناس غفيرة.

قيل لنا: إنَّ الدنيا مقلوبةٌ في (سفاجا)، وإنَّ كبارَ رجال الدولة موجودون فيها من أجلنا.

أقلَّتنا حافلات كانت تنتظرنا على رصيف الميناء إلى مشفى (سفاجا العسكري)، وهناك عالجَنا الأطباء، وقابلَنا الصحفيون، وحققت معنا النيابة، وعرفت أسماء باقي الناجين من أفراد طاقم العبارة، كان عددٌ قليل من الناجين في مشفى (سفاجا المدني).

حزنتُ من قلبي على المفقودين، الذين كان البحثُ ما زال جارياً عنهم حتى ذلك الحين.

لم نمكث في المشفى أكثر من أربع وعشرين ساعة، فقد خصَّصت وزارة النقل والمواصلات والنقل البحري حافلات لنقل كلّ الناجين من (سفاجا) إلى مدنهم في محافظات الوجهين القبلي والبحري مساءَ يوم الإثنين ١٦ / ١٢ / ١٩٩١م.

كدتُ من فرط التعب والإجهاد والإعياء التام والآلام التي كنتُ أشعرُ بها في أذني ورأسي وكل عظام وعضلات جسمي أن أبقى في المشفى ولا أرحل إلى بيتي، بعد أن طلبتُ من إدارة المشفى ذلك فوافقت على طلبي، لولا أن طبيباً آتاه الله الحكمة جاءني بعد أن غادر جميعُ الناجين المشفى، وقبل أن تتحرك بهم الحافلات المتأهبة للسير، وأقسم لي وأقنعني بأنني لن أستردّ عافيتي إلا في بيتي وسط أهلي، وقال لي: لو كنتُ مكانك، وفي نفس حالك، ولم يكن هناك سبيلٌ لعودتي إلى بيتي إلا على نقالة تحملني، لطلبت دون تردّد نقالة توصلني!

وعاونني الطبيبُ الحكيمُ حتّى دخلتُ الحافلة، فترك لي الناجون كلهم ـ جزاهم الله خيراً ـ الكرسيَّ الكبيرَ الذي يقع في مؤخّرتها، فاستلقيتُ فوقه على ظهري طوال الطريق.

وفي الحافلة التي أقلَّتنا من أمام مشفى (سفاجا العسكري) قابلتُ باقي أفراد الطاقم الذين كانوا محتجزين في مشفى (سفاجا المدني).

كانت المسافةُ من (سفاجا) إلى مدننا في الوجه البحري طويلة مكَّنت كلاًّ منّا من أن يسمعَ داخل الحافلة قصص النجاة والأحداث التي مرّت ببعض أفراد الطاقم والركاب.

وبعد أن أشرقت شمسُ اليوم الجديد - الإثنين ١٦ / ١٢ / ١٩٩١ - قرأنا صحفَ الصباح الطازجة داخل الحافلة، علَّق بعضنا تعليقات طريفة على المكتوب فيها، فلم يكن كثيرٌ مما نشر فيها عنّا أو عن الحادث صحيحاً.

كنتُ قبل الحادث أصدّق أن هناك أشياء في الحياة لا تقدَّرُ بمال أو بأثمان، مثل عجائب الدنيا، وكل ما يبهرُ الإنسان وليس له على وجه الأرض مثال، لكنني بعد النجاة أيقنتُ أنَّ كلَّ الأشياء يمكن أن تقدَّر بأثمان أو بأموال.. إلا الحياة، وكلّ ما يربطنا فيها بالله.

***

فلمّا نجاكم إلى البرِّ

معظم من قابلتهم بعد النجاة سألوني: من الذي أخطأ فسبّب بخطئه حادث العبّارة؟، هل هو الربّان أم فرد آخر من أفراد الطاقم؟!

كنتُ في كل مرة أسمع فيها هذا السؤال أفكّر في الإجابة كأني لم أسمعه من قبل من أحد من الناس.. فليس في صدري أيّ اتهام للربان أو لأي فرد آخر من أفراد الطاقم، فقد كنت بعد الاصطدام مع الربان وكبير الضباط المسؤول عن الوردية الملاحية آنذاك معظم الدقائق السبع التي تلت الحادث وسبقت الغرق، ولم أكن حينئذٍ أضمر لهما أو لأحدهما في صدري أية اتهامات.. كنتُ أشعر حينذاك أنّ هذا الحادث مثل أي حادث، هو في نهاية المطاف وقع بمشيئة الله، ويعدّ من قضاء وقدر الله

الذين أمرنا بالرضا بهما. لذا فلم أضمر في صدري في تلك الأثناء، أو أثناء ساعات العذاب في الماء، أو حتى بعد النجاة أية اتهامات لأحد على الإطلاق. والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وفي سورة يس آيات [٤١ ـ ٤٤] تقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

والمصائب التي يتعرَّض لها عباد الله تكون لعدّة أسباب، فهي قد تكون **ابتلاء** أي: امتحاناً واختباراً من الله ليرفع الناجحين فيه بصبرهم درجات، والله تعالى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقد تكون المصائب بلاءً يكفّر الله به سيئاتنا، والله عزَّ وجلّ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن هذه الآية: إنها أرجى آية في كتاب الله عزَّ وجلّ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يكفّر الذنوب بالمصائب، ويعفو عن كثير، فماذا يبقى للعبد من ذنوب بعد كفارة الله تبارك وتعالى وعفوه؟، فالله عزَّ وجلّ أكرم من أن يحاسب العبد على ذنوب في الآخرة بعدما حاسبه عليها في الأولى، وهو سبحانه وتعالى أحلمُ من أن يعاقب عبده على ذنب بعد عفوه عنه.

وقد كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها تقول إنْ أصيبت بمصيبة: «هذا بذنبي، ويعفو عن كثير». رضي الله سبحانه وتعالى عن السيدة عائشة أمّنا التقية النقية الطاهرة.

وقد تكون المصائب التي نتعرَّض لها مثل زلزال ينبهنا إلى أننا نعيش في ضلال وغفلة، ويجب أن نسلك طريق التوبة أي: الرجوع إلى الله عسى أن نستكينَ إلى الرحمن، ونخشع له سبحانه وتعالى، فنقصده بالدعاء ونتذلّل إليه بالطاعة، ونتضرّع إليه عزَّ وجلّ ونخلص له العبادة. والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

أخبرني أحد الغرقى - رحمهم الله - من أفراد الطاقم قبل الحادث أنَّه كان قد تعرَّض لحادثي غرق من قبل أثناء ركوبه البحر، فأنجاه في المرّتين ربّ السماء والأرض. وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

كنت أتعجَّبُ من قول أولئك الذين كانوا يستقبلوني بعد النجاة ملقبين إياي بالبطل، إذ إنَّ الفضل في النجاة يرجع كله لله مجيب المضطر إذا دعاه، فهو المحيي وهو المميت لمن أحياه.

لقد ذكر الغوَّاصون الذين صوّروا السفينة تحت الماء أنَّ هناك جثثاً مشبوكة في شعاب المرجان، وقد كان من الممكن جداً أن أكون إحداها، أو أن أكون غذاءً شهياً لسمكة من أسماك القرش الأبيض المنتشرة في البحر الأحمر بصفة عامة وفي منطقة الحادث بصفة خاصة وهي تلقب بوادي (جاسوس)، ويطلق

الصيادون في (سفاجا) على هذا الوادي اسم: (أبو كفن) لهذا السبب.

لقد دُهشتُ حين قرأتُ في الصحف بعد أشهر كثيرة من غرق العبّارة، أنَّ العالم الأميركي (ماك كوشر) صنّف سمك القرش الأبيض بأنّه سفاح وليس مجرّد قاتل، وأنَّ طعامه المفضَّل هو الإنسان بكامل ملابسه بخلاف ما كان معتقداً من قبل، حتى إنّ الإنسان لا يملك إلا أن يدهش عندما يرى ما تحتويه معدة هذا القرش، ومنها جثة غواص ببذلة الغطس!!

ولقد قرأتُ بعد الحادث أنَّ أسماك القرش الأبيض كانت قد هربت من وادي (جاسوس) ليلة غرق العبَّارة بسبب العناية الإلهية التي تمثَّلت في مجيء سرب من الدلافين وانتشاره في المنطقة على غير العادة، إذ إنَّ القرش الأبيض يخشى الدلفين الذي يعرف كيف يصيبه في مقتل، وقرأت أن عيون الغواصين في ذلك الحين رصدت دلافين تحيط بالغرقى، ويعمل كل منها في الأعماق كالحارس يحول بين أسماك القرش الأبيض وضحايا الحادث. كما قرأتُ أنَّ دُلفيناً أنقذ ناجياً بأن حمله سالماً إلى الشاطئ.

سبحان من أودع في قلوب الدلافين الرحمة بالإنسان الضعيف الخطاء في حق الله الحليم الغفار، والسريع النسيان لفضل الرحمن.

لم تكن النجاةُ إلا بإرادةِ الله، حيث لم تفلح آنذاك قمصانُ النجاة في الحفاظ على حياة كل من ارتداها، وليس أدلُّ على ذلك من غرق كبير المهندسين رحمه الله (أول من شاهدته ارتدى قميص نجاة). وقد كان من أغرب قصص النجاة آنذاك قصتا نجاة اثنين من أفراد الطاقم، أمسك كل منهما بجثةٍ ترتدي قميص نجاة كانت شبه طافيةٍ فوق سطح الماء.

وبالرغم من أنني لم أعتمد آنذاك على قميص النجاة في مواجهة الأمواج ومقاومة الأخطار، لأنه لم يكن يمكن حينئذٍ الاعتمادُ عليه بالفعل، ربّما بسبب قِدَم تاريخ الصنع، إلا أن سيناريو نزولي إليه وعثوري عليه يجعلني أشعر أنني أظلمه حينما أقول: إنه (ليس اسماً على مسمى)، وكأنَّ وجودَه كعدم وجوده.

فكلَّما أتذكّر الكشاف الذي كنتُ أقوم بتغيير بطاريته قبل اصطدام العبّارة مباشرة، ثم صعودي به بعد هذا الاصطدام إلى

غرفة القيادة فوراً، دون أن أدري أنه في يدي، ثم استخدامي له في الوصول إلى قميص النجاة الموجود في (قُمرتي)، ثم سقوطه وانكساره وانطفاء نوره بعدما رأيتُ القميص، وكأنَّما انتهت عند هذا الحد مهمته.. أشعر أن هذا السيناريو المحكم الذي شاركني الكشافُ بطولته، لا دخل لي ولا للكشاف فيه، وإنما هو من تدبير الله لحكمة يعلمها وهو الحكيم.

لذا فمن المؤكَّد أنَّ القميصَ قد شارك بدورٍ ما، على الأقل في المرات واللحظات الكثيرة التي كنت بفضل الله أصارع فيها بصعوبة الغرق في الماء.. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤].

كما لم تكن قوةُ الأبدان مقياساً للنجاة، بدليل أنَّ راكباً مبتلى من الله بالشلل نجا بفضل الله ورحمته بينما غرق أخوه المعافى.

ولم يكن احترافُ ركوب البحر والسباحة فيه مقياساً للنجاة، بدليل أنَّ النسبة المئوية للناجين من الركاب مقارنة بالعدد الكلي للركاب تفوقُ النسبة المئوية للناجين من أفراد الطاقم مقارنة بالعدد الكلي لأفراد الطاقم.

لم تكن النجاةُ إلاّ بفضل وإرادة الله، بدليل أنَّ عدداً كبيراً من الناجين وجدوا بفضل الله القيوم (أي: القائم على شؤون خلقه) وليس بمحض المصادفة أشياء تساعدهم على النجاة مثل: رماثات، وقارب نجاة، وأبواب وألواح خشبية، وبراميل معدنية فارغة ومغلقة بإحكام، بل علمتُ أنَّ أحدهم أمسك وهو في البحر بـ(جركن) بلاستيك فارغ مغلق بإحكام كان يشرب منه من قبلُ الماء.

لم تكن النجاةُ إلا بفضل وإرادة الله، بدليل غرق أحد الأشخاص أمام رجال الإنقاذ، وبدليل نجاتي التي بدت لي آنذاك حلماً من الأحلام الصعبة المنال، والتي كان الأمل فيها من خلال الواقع الذي عشته ليس أشبه بالمستحيل أو أقرب منه، بل كان هو المستحيل نفسُه، إلا على من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي فزعتُ إليه في تلك الأثناء هرباً من كل الأخطار، وأخذتُ أدعوه دعاءَ المضطر بتكرار وبإلحاح يَمَلُّ منهما الناس، ولم يملّ ربّي وربّ الناس من الإلحاح ومن تكرار الدعاء ساعات وساعات، فقد سمعني حينذاك بغير حساب، ولولا أن الله (سميع) (مجيب)، ولولا أنه (حليم) (غفور) (عفو) يعفو عن كثير، ولولا

أنه (لطيف)، و(رحمن) (رحيم)، للبث في قاع البحر الأحمر أو في بطن سمكة من أسماك القرش الأبيض إلى يوم الدين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. لا إله إلا الله. ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

الحمدُ لله الذي ثبَّت قلبي على دينه آنذاك، وأسأل الله أن يثبّت قلوبنا على دينه في كلّ آن، وأن يربطَ على قلوبنا بالإيمان.. يقول الله مصرّف القلوب والأبصار: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

لقد خرجت من الساعات الثلاث عشرة بدروس عملية مستفادة تفوق في وزنها وقوتها الدروس العملية التي خرجتُ بها من حياتي كلها، فكل درس خرجت به مما مسّني من ضرّ في البحر في تلك الساعات ليس كمثله درسٌ من الدروس التي خرجتُ بها من كل تجارب الحياة على مرّ كل ما فات من سنوات.

لا أحدَ من البشر يعلم أين الخير وأين الشرّ!، إنَّما يعلم ذلك عالم الغيب فقط، فنظرةُ الإنسان لكثير من الأمور قاصرة كلّ القصور، لأنه لا يدري عواقبَ الأمور مثلما يعلمها علاّم الغيوب، الذي يجب أن نسلّم له كلّ أمر، فهو سبحانه وتعالى لا يأتي منه إلا الخير... هذا أول درس.

وليس أدلّ على ذلك من تلك اللحظات التي كنت أستقبل فيها الغرق بضعف تام قبل أن أرى الرماث، إذ شعرتُ أنني أخطأت حينما فكرتُ في السباحة في اتجاه الجبال ضد تيار من الأمواج أجهدتني وأنهكت قواي، وجعلتني أوشك على الهلاك، فلمّا بدأت أشرب رغماً عني الماء وأستقبل الغرق برضا تام واستسلام، فوجئتُ بأن ما قد ظننتُ وأيقنت وقتئذ أنه خطأ وضر قد انقلب بفضل الله إلى صواب وخير، فقد أراني الرماث حينئذٍ الله عزَّ وجل، والله الحكيم يقول في القرآن الكريم:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والواقع أنَّ رماث النجاة لم يكن إلا قطعة من اليابسة أو الجبال

التي كنت أسعى سابحاً إليها حينذاك، عسى أن أصل إليها بمعجزة من الله، فإذا بها تسعى إليّ بفضل الرحمن الذي شاء وقتذاك أن يرحمني، ويطوي الأميال والأميال التي كانت تحول بينها وبيني، مثلما رحمني من قبلُ وجعل الليل يمضي ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

كنتُ آنذاك أتوكَّل على الله تمام التوكّل بإخلاص كما لم أتوكَّل عليه من قبلُ بل ومن بعدُ في يوم من الأيام، كان الأملُ في الله الصمد ـ أي: الوحيد المقصود بالدعاء ـ هو الأمل الأول والأخير بل والوحيد على الإطلاق ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. أسأل الله أن يرزقنا صدقَ التوكّل عليه، وتمامَ التوكّل عليه، ودوام التوكّل عليه، مثلما تتوكّل عليه الطير.

ومن تلك الدروس أنَّ فرجَ الله يأتي بعد نفاد مخزون الأسباب التي يمكن أن يأخذَ بها الإنسان، فقد أراني الله رماث النجاة بعد أن أصاب جسمي ما يشبه الشلل التام، وبعدما بدأت أشرب رغماً عني من البحر الماء وفقد قلبي تماماً الأملَ في النجاة برغم يقيني بقدرة ورحمة الله، حتى إنني كذَّبتُ عيني آنذاك لمَّا رأت

أول مرة الرماث، رغم أنَّ رؤيته تعدُّ بشارةً بالنجاة، ولم أصعد فوقه إلا بعد محاولات أوشكت خلالها على الهلاك. كما أني وكل ركاب الرماث لم نرَ سفينة النجاة إلا بعد نفاد كل ما كنا نأخذ به من أسباب، ولم ينقذني طاقم كاسحة الألغام إلا بعد أن سقطتُ في الماء وقاومتُ قدر استطاعتي وقتذاك حتى أوشكتُ على الغرق بجوار أسباب النجاة.. فقد كانت النجاة بيد الرحمن لا في الأخذ بالأسباب الذي جعله الله سنّة الحياة.. رأيتُ كيف يجيبُ الله المضطرّ إذا دعاه وهو يوشك على الهلاك بعد نفاد الأسباب.. يقول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] لا إله إلا الله ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] ، أي: أم ظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تمتحنوا بما امتُحن به مَنْ كانوا قبلكم، فتصبروا أنتم كما صبروا هم. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي:

الحاجة والفقر وسوء العيش ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي: العلل والسقم والحر والبرد، ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ أي: أزعجوا من شدة البلاء والخوف من الأعداء ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بعد أن بلغ الجهد بهم أشده فاستبطؤوا نصر ربهم بأن تساءلوا: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ ؟!، مستعجلين إياه.. فأجاب الله الحكيم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ .

ومن الدروس التي خرجتُ بها أيضاً درس لقنني إياه ذلك الراكب الذي كان يقول من آنٍ لآخر: أنا مش عارف لمّا ح ارجع البلد ح أقول لهم إيه عن الفلوس إللي ضاعت!

هذه الجملة تذكّرني بقول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: ٩٦]، فما عندنا يمكن أن ينفد من حيث لا نتوقع، فهذا الراكب الذي كان يحمل أمواله معه فوق سطح العبارة، أظن أنه كان يؤمنها خلال تلك الرحلة من احتمال السرقة أو احتمال الضياع، لكنّه لم يكن يؤمنها من احتمال الغرق في الماء، وهو أمرٌ لم يكن يتوقّعه، ولم يكن يستطيع أن يمنعه.

وعدم صَبْرنا على كلام هذا الراكب هو درسٌ آخر، إذ بالرغم

من أننا بفضل الله صَبَرنا على ما مسَّنا من ضرّ في البحر، إلا أننا لم نتحلَّ بالحلم ونصبر على كلام قاله أحدُنا، لم ينتهك به حرمة ربنا حتى ننتقمَ لله منه بغضبنا.

فهل يعني هذا أنَّ الصبر على بعضنا بعضاً يحتاجُ إلى طاقة احتمال أشدّ مما كان يحتاجه الصبر على ما مسّنا من ضُرّ في البحر؟!، إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

لقد صبَّرَنا الله على ما مسَّنا من ضُرّ في البحر، لأننا استعنَّا به عزَّ وجل.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، و ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ تعني: هلكَ وفُقِدَ من تلجؤون إليه إلا الله.

استعنَّا بالله على ما مسَّنا من ضُر في البحر فصَبَرْنا، ولم نستعنْ بالله على ما سمعنا من ذلك الراكب فغضبنا.

وفي (الصحيحين) أنَّ رجلين استبّا عند النبي ﷺ وقد اشتدَّ غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: (إنّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يَجِدُ، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم).

إنَّ الله سبحـانه وتعـالى يقـول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقـد كـان عـدم خـروجـي مـن صـلاة الـعشـاء خشـية أنْ أفـقـدَ السكينة التي أنزلها الله في قلبي فورَ دخولي فيها بتكبيرة الإحرام هو من فضل الله عليَّ استعانة بالصلاة، وإن كنت لم أقصد ذلك صراحةً آنذاك.. فقد هداني الله لأنْ أبدأ الدعاء وأستمرّ فيه داخل تلك الصلاة، ولا أخرج منها على الإطلاق إلى أن أخرجَ من الحياة راجياً مغفرة الغفار ورحمة الرحمن أو إلى أن أدرك النجاة بفضلِ مجيبِ المضطر إذا دعاه.

وبرغم أنني بفضل الله ممن يفشون السلام.. وأسلّم كل يوم على الملك الذي عن يميني على الأقل خمس مرات، إلا أنني استثقلتُ آنذاك أن أقول له: السلام عليكم ورحمة الله.

كنتُ أشعرُ داخل تلك الصلاة أني في جنة الرضوان، وإن حدث أن خرجتُ منها فسأخرج إلى النار.. أسأل الله لنا رضاه والجنة، وأعيذ أنفسَنا به من سخطه والنار.

وعرفت معنى ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ التي وردت أكثر من مرة

في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ و١٦٢].

فتخفيف العذاب نعمة من نعم الرحمن، أسأل الله أن يخفّف عنا، وأن يعافينا ويعفو عنّا ويرحمنا.

ومن الدروس التي استفدتُ منها أيضاً درسٌ مستخلَصٌ من قصة نجاة أحد أفراد الطاقم، إذ أخبرني بأنه حينما أيقن أنَّ الغرق لا محالةَ قادم، وأنَّ البحر سيبلع حتماً العبّارة في جوفه المظلم الواسع، عاد بسرعة إلى (قمرته) في الظلام الدامس، فأخذ منها حافظة نقوده، وخرج يجري بها بسرعة إلى سطح العبّارة، فلم يكد يصل إلى السطح حتى بدأت العبارة تغرق بسرعة البرق، فألقى حافظته على الفور، وغرق مع العبارة في الماء، ثم طفا بعد ذاك وأخذ يسبح وسط الأمواج يقاوم الغرقَ ويسأل الله النجاة، حتى وجد بفضل الرحمن باباً خشبياً طافياً مربوطاً فيه حبلٌ سميك، فأمسك به، وأخذ يناجي الله السميع العليم مجيب المضطرين، ويتضرَّع إليه عزَّ وجل من أجل أن يكشف عنه الضر وينجيه من الغمّ ويفرّج عنه الكرب.

وبينما كان يناجي الله عزَّ وجل وهو على هذا الوضع وجد حقيبةَ يدٍ نسائية بجواره طافية، فتذكّر حافظته الغارقة، وأخذ يحدِّثُ نفسه: (ترى ماذا بداخل تلك الحقيبة؟!، لقد حرصتُ قبلَ الغرق على أن آخذ معي حافظتي التي كانت بما تحوي أخف ما عندي حملاً وأغلاه ثمناً، ولا شكَّ أن صاحبة هذه الحقيبة كانت حريصة على أن تكون معها في اللحظات الأخيرة، وهذا يعني أنَّ بداخلها أغلى ما تملك، كنقود كثيرة أو ذهب ومجوهرات ثمينة).

وظلَّت الحقيبة ببطء تقترب منه، وأمل اصطيادها واقتناصها يداعبه، إلى أن صارت تماماً عنده وأصبحت في متناول يده، وكاد يمسكها لولا أنه شعر في الوقت المناسب أن هذه الحقيبة ما هي إلا طعماً ألقاه إليه الشيطان بدون سنارة، يريد أن يغريه بالدنيا الغرورة، في الوقت الذي يوشك فيه على الرحيل من الحياة الأولى، فأمسك حبل الباب بيد واحدة واستخدم الأخرى في السباحة بعيداً عن تلك الحقيبة، فلمّا ابتعدَ عن طعم الشيطان أحسّ بالراحة وشعر بالأمان.

عرفتُ من تلك القصة قيمة حُسن الخاتمة.. وهي قيمة

غالية.. وفهمتُ لماذا علَّمنا رسول الله ﷺ أن نسألَ الله سبحانه وتعالى أن يرزقَنا حُسن الخاتمة في الحياة الدنيا.

وليس أدلَّ على أهمية حُسن الخاتمة من إحساسي بندمٍ شديدٍ ليس له مثيل جعل صدري يضيق، لأنني لم أصلِّ صلاة العشاء قبل الغرق في الماء.. أسأل الله الحفيظ أن يحفظنا من الشيطان الرجيم ومن أنفسنا ومن كل مَنْ يأمرُنا أو يغرينا بالسوء، وأن يحسن خواتيم أعمالنا، وأن يجعل آخر كلامنا في حياتنا قبل رحيلنا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

والعجيبُ أنَّ فرد الطاقم هذا أخبرني بأنَّه نام في الماء وسط الأمواج عدة ساعات وهو يمسك بحبل الباب!

سبحان الله الذي رحمه من العذاب وأنامه وسط الأمواج مثلما أذهب عنه رجز الشيطان.

أليس الله الحكيمُ أنام من قبل أصحاب الكهف والرقيم: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

أليس الله عزَّ وجل أنام مسلمي غزوة بدر ليلة يوم المعركة، أنامهم الله جميعاً سوى رسول الله ﷺ الذي أخذ يصلّي تحتَ عريش

مصنوع من جريد النخل بجوارهم حتى أصبح، وهم يعلمون أنَّ الجيشَ الذي سيحاربهم يبلغ عدده ثلاثة أضعاف عددهم.

أنامهم الله تعالى طمأنةً لقلوبهم، وراحةً لأبدانهم، قبل التحامهم بأعدائهم، وطهَّرهم، وأذهبَ عنهم وسوسة الشيطان، وربط الإيمانَ على قلوبهم، وثبَّتَ أقدامهم: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

الآن كلَّما أصلي صلاةَ جماعة، ويطلب منا الإمامُ قبل أدائها أن نصلّي (صلاة مودّعين) أتذكّر على الفور صلاة العشاء التي صلّيتُها في الماء منذ سنين، وكيف كانت بإحساسٍ صادقٍ لمودِّع للحياة، وكيف كانت بإخلاص تامٍّ لله ربِّ العباد، فقد كنتُ أشعر أثناء صلاتي أنني أرى الله أمامي، إذ كانت بيني وبينَ لقائه سبحانه وتعالى أنفاسٌ، لم أكن أعلم على الإطلاق أنها ستستمر بفضل الله حتى الآن.

لم أنسهُ في تلك الصلاة. خشعتُ فيها لله كما لم أخشعْ من قبلُ

في يوم من الأيام. كنت منتبهاً لكل ما فيها من أقوال وأفعال. كان تركيزُ الفكر فيها شديداً، والشيطانُ عني بعيداً، وخوفي من الله عظيماً، ورجائي فيه كبيراً، وحبي له شديداً، ليس كمثله حب وكأني لم أعرف سواه من قبل.

وأقسم بالله العظيم أنني لم أصلِّ صلاةً مثلها في حُسنها وصدقها، لا قبلها ولا بعدها.

مثلما أنَّ الضميرَ داخلَ جسم الإنسان مثله كمثل جهاز إنذار يعمل تلقائياً وليس يدوياً بدون كهرباء أو مفاتيح أو أسلاك حينما يقتربُ الإنسان مما يغضب الله، فقد جعلني الضرُّ الذي مسَّني في البحر أكتشفُ بداخلي مقياساً ذي مؤشر يعملُ تلقائياً كالضمير، تقاسُ به شدة (الإخلاص في الدين)، مثله كمثل أي مقياس من المقاييس التي ابتكرها العلماءُ بفضل الله ونستخدمها في الحياة، كـ(ريختر) المقياس الذي تقاس به قوة الزلزال، أو كـ(الأميتر) الذي تقاس به شدة تيار الكهرباء.

ولو افترضتُ أن تدريج مقياس (الإخلاص) مقسَّمٌ إلى عشر درجات، فإنني أستطيع أن أقول: إنَّ أعلى قراءة سجَّلها مؤشّر

المقياس على الإطلاق منذ أن ولدتني أمي حتى الآن كانت عشرَ درجات، وذلك أثناء تلك الساعات الثلاث عشرة منذ أن غرقت العبَّارة وغطست معها في الماء إلى أن شاء الله ليَ النجاة.. ولقد أصبحتُ أعرفُ في أيِّ وقتٍ وحين كم تنحرف القراءةُ الحالية لشدّة (الإخلاص في الدين) عن أقصى قراءة في التدريج، وأستطيع أن أؤكد أن قراءة مؤشر هذا المقياس لم تتعد الخمس درجات بأي حالٍ من الأحوال في أي وقت من الأوقات قبل أو بعد تلك الساعات!

ألست أصلي كل يوم خمسَ صلوات مفروضات؟!، ولكن كيفَ أقارنُ أيَّ صلاة من تلك الصلوات بصلاة العشاء التي صلّيتُها في الماء؟!

يقول الله مجيب المضطرين: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومعنى مقتصد: قيل: أي متمسك بالتوحيد والطاعة وموفٍ بما عاهد الله عليه في البحر، وقيل: أي متوسط بين الكفر

والإيمان، وقيل: أي كافر مضمر للكفر.. و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، أسأل الله أن يرزقنا الإخلاصَ في الدين في كل حين.

أدركتُ خلال تلك الساعات أنَّ الإنسانَ لا يخرجُ من الدنيا إلا بما عمل من أعمال، وأنَّ العملَ الصالح كالذهب الخالص له قيمة في وقت الكرب ويومَ الفصل حتى ولو كان صغير الوزن.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اتقوا النارَ ولو بشقّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ فبكلمةٍ طيبةٍ) متفق عليه. والله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وأيقنتُ في تلك الساعات أنَّ الكرة الأرضية وما فوقها من متاع الدنيا وعلاقات إنسانية ومفاخر دنيوية وما في باطنها من ثروات كبرى يزعمون أنها (طبيعية!) لا تعني ولا تساوي شيئاً بالنسبة للإنسان المقبل على الرحيل من حياتنا الفانية، كانت النجاةُ من العذاب والهلاك أغلى عندي آنذاك من تلك الكرة التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها لا تساوي جناح بعوضة عندَ الله .

إنَّ الله سبحانه وتعالى وصفَ حال الناس حين يتعرَّضون

لـعذاب يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عـبس: ٣٤ ـ ٣٧].

ويقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]. وهذه الآية التي سبقتها آيات تتحدَّث عن عذاب الله للكافرين والمشركين يوم الدين، معناها: لو أنّ كل ما في الأرض مملوك لكل نفس كفرت أو أشركت وجحدت لارتضت أن تقدّمه فداءً لما تستقبلُ من عذابٍ تراه، وتعاين هوله يوم القيامة.

إنَّ النجاةَ نعمةٌ كبيرةٌ، والدليلُ قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

والنعمة هي ابتلاء أي امتحان من الله، ينجح فيه من يشكر، ويفشل فيه من يكفر، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى

غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] آمين.

أخبرني أحد الناجين من أفراد الطاقم أنَّه قد شاهد بعينه جثةَ أحد الزملاء، أخرجها رجالُ الإنقاذ من بحر (سفاجا) بعد نحو ثلاثة أيام من غرق العبّارة، وقال الزميل: العجيبُ أنني لما رأيتُ زميلنا الغريقَ لم أصدّق أنه قد غرق، فبطنُه رغم مرور ثلاثة أيام لم تنتفخ، وجسمه سليم لم يمسسه سوء على الإطلاق، رغم أن ماء البحر ملح أجاج، ووجهه منير وتظهر في قسماته سكينة عجيبة ليس لها مثال جعلتني أظنّ أنه ليس بغريق وإنما يغط في نوم عميق!

فقلت لزميلي: «لا تنسَ أنَّ «فلاناً» هذا رحمه الله تعالى كان من الصالحين ـ أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكي أحداً على ربّ العالمين ـ، وقد كان مهتماً بأمر الإسلام والمسلمين، حتى إنّه كان يحرصُ باستمرار على مقابلة الأقليات المسلمة في دول العالم المختلفة التي كان يزورها، ويكتبُ في الصحف المصرية والعربية عن المشكلات والصعوبات التي تواجهها تلك الأقليات

في بلادها أو في مهجرها، عسى أن تجد في بلادنا من يحلّها، وقد أطلعني رحمه الله على تلك المقالات، فقرأتُ بعضَها، ولا تنسَ أنه بمشيئة الله يعد شهيداً من الشهداء».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدّون الشهداءَ فيكم؟»، قالوا: يا رسول الله مَنْ قُتِلَ في سبيلِ الله فهو شهيدٌ، قال: «إنَّ شهداءَ أمتي إذاً لقليلٌ!» قالوا: فمن هم يا رسول الله؟، قال: «مَن قُتلَ في سبيلِ الله فهو شهيدٌ، ومن مات في سبيلِ الله ـ أي: في طاعته ـ فهو شهيدٌ، ومن مات في الطاعونِ فهو شهيدٌ، ومن مات في البطنِ فهو شهيدٌ، والغريقُ شهيدٌ» رواه مسلم.

ومن الدروس التي خرجتُ بها درسٌ كبيرٌ بعنوان: (الثبات حتى الممات)، لقنتني إياه راكبة من الراكبات، أحسبُها الآن من الشهداء، والله حسيبها، ولا أزكي على الله أحداً.

وقد سمعتُ أحداثَ هذا الدرس الكبير من أحد علماء الدين، وهو الذي اختار له هذا العنوان الجميل، بعدما استمع بنفسه إلى الأحداث التي استخلص منها هذا الدرسَ المفيد من زوج تلك الراكبة الذي كان معها في تلك الرحلة التي فرقت بينهما.

قال العالم: أقسم لي زوجها قائلاً: والله يا شيخ، لما سَمعتُ الناسَ تصرخُ وتبكي وتقول: إنَّ المركبَ تغرقُ، قلت لزوجتي وأنا معها في الغرفة: قومي.. هيا اخرجي بسرعة.. إنّ المركبَ تغرق.

قالت: كلا انتظر!

قلت: وماذا أنتظر؟! اخرجي بسرعة.

قالت: انتظر حتى ألبسَ النقاب.

قلت: وهل هذا وقتُ نقاب؟!

قالت: والله لن أخرجَ حتى ألبسَ النقابَ، حتى إن متُّ ألقى الله وأنا على طاعة.

فانتظرتُها حتى لبست ثيابها، ونقابها، وسروالها، وقفازها، وشدّت عليها ثيابها، ثم خرجتْ معي، فلمَّا وصلنا إلى سطح المركب وأيقنا أننا هالكون وجدتُ زوجتي تتعلَّق بي وهي تقول: أستحلفك بالله.. هل أخطأتُ في حقك قبل اليوم؟!

فقلتُ لها: لا والله.

فقالت: سامحني.

فقلت: سامحتك.

فسمعتها تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ثم نظرت إليَّ وقالت: أرجو الله أن يجمعني بك في الجنة.

أخشى أن يكون قد فاتني حينذاك ركبُ الشهداء، وأخشى أن يأتيَ يومٌ أندمُ فيه على سؤالي الله النجاة بإلحاح... أسألُ الله أن يبلّغنا منازل الشهداء.

لمستُ بالتجربةِ العملية في تلك الساعات أنّ في كلام الله أسرارٌ تصل إلى حدّ الإعجاز تكشفت لي أثناء مرور تلك الأحداث، وأيقنتُ أنّ الدعاءَ هو نظامٌ رائعٌ للاتصال بالرحمن.

ألم أكن أشعر في تلك الساعات وأنا مغموم ومكروب ومرعوبٌ بسعادة في قلبي وسرور لم أشعر بمثلهما من قبلُ ومن بعدُ، في أي يوم فورَ قراءة القرآن ودعاء الله الرحمن، وهل كان كلُّ خطرٍ واجهتُه في تلك الليلة يزولُ بالمرة إلا بقراءة القرآن والاتصال بالرحمن؟

كما برهن لي الدعاءُ المأثور من القرآن والسنّة في تلك الساعات برهاناً قاطعاً لا ريبَ فيه على الإطلاق أنَّ الله (سميعٌ) للعباد، (مجيبٌ) للدعاء.

وهل كانت النجاةُ وهي نعمة كبيرة من الله إلا إجابة للدعاء؟ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣].

لقد قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، وقال تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

يا له من اعتراف جميل، وأنا والله لم أكن بدعاء ربي شقياً ليلةَ الغرق أو قبلَها أو بعدَها. وأسألُ الله الكريم أن يجعلنا حين الحاجة لا نطرق إلا بابه، وألاّ يردَّنا بذنوبنا خائبين، وأن يقينا عذابه.

وهل يمكن أن أشقى بدعاء ربي وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

[البقرة: ١٨٦]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، يحيي ويميتُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

عن النعمان بن البشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الدعاءُ هو العبادةُ» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : (لا يغني حذرٌ من قَدَرٍ، والدعاءُ ينفعُ مما نزلَ ومما لا ينزلُ، وإنَّ البلاءَ لينزلُ فيلقاه الدعاءُ فيعتلجانِ ـ أي: يتصارعان ويتدافعان ـ إلى يوم القيامة) رواه البزار والطبراني والحاكم، وقال: حديث صحيح الإسناد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلثُ الليل الآخر، يقول: (مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ، مَن يسألني

فأعطيَه، ومن يستغفرُني فأغفرَ له) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي (صحيح).

ولولا أنِّي حين مسَّني الضرُّ في البحر فررتُ إلى ربي، فاعتصمتُ به وهو الرحمن من كلِّ ما أخاف بقراءة تلك السور القصيرة من القرآن، ولولا أنِّي لجأتُ إليه عزَّ وجلّ في تلك الساعات راجياً رحمته التي تسعُ كلَّ شيء بما ذكرتُ من دعاء، لقتلني الهمُّ والغمُّ، ولافترسني الخوفُ والرعبُ ـ ولا أقول سمكة من أسماك القرش ـ ولما صبرتُ على البلاء والابتلاء. فقد استأنستُ به آنذاك حينما استوحشتُ مما سواه:
﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وما كان فراري إلى الله إلا بهداه:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ *

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

يقيني أنَّ حياتي بعدَ النجاة، كان يجب أن تكون سجدةَ شكرٍ وعرفانٍ لله في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، وهذا أقلّ ما يجب على مثلي أن يحمدَ الله به بعد النجاة.

ولأن هـذا لم يحـدث فإنني أشعرُ بذنبٍ كبيـرٍ وخـوفٍ مـن الله عظيمٍ كلّما قـرأتُ أو استمعتُ إلى قـول الله الحكيم: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا * أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦ ـ ٦٩].

اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إله إلا أنتَ، خلقتني وأنا عبدُكَ، وأنا على

عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي فاغفر لي فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت.

بعد النجاة بمدة طويلة أهمَّني أمرٌ وشغلَ كلَّ تفكيري وسلب تركيزي في الصلاة، فلمَّا فكَّرتُ جيداً في أمري اكتشفت أنَّ الهمَّ أعوذ بالله منه قد تمكَّن مني لأنني لم ألجأ إلا قليلاً إلى الله.

وكأنني والعياذُ بالله قد يئستُ من روحِ الله مع أنه:

﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أو كأنني أبحثُ عن حلٍّ لمشكلتي والعياذُ بالله عندَ غير الله أو بعيداً عنه بالقرب من الأسباب التي يجبُ أن آخذَ بها كإنسان، فأكون بذلك قد وقعتُ فريسةً في شباك الشرك بالله.

والشرك والإيمان، والكفر والإيمان، قد يجتمعان في قلبِ الإنسان السريع الجحود والنسيان لفضل الرحمن الذي لا إله سواه.. والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣ و٦٤].

اللهمَّ إني أعوذُ بك مِنْ أنْ أشركَ بك شيئاً أعلمُه، وأستغفرُكَ لما لا أعلمُه، وكرِّه إليَّ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ.

رويتُ قصَّة غرق العبَّارة لشابٍّ سعودي متفقّه في دين الله، فسألني سؤالاً غريباً بعد أن فرغت من رواية الأحداث: قال: «لو أنك بعد صعودك فوقَ سطح كاسحة الألغام قيل لك: إن كنت تبغي النجاة فلن تغادر الكاسحة أبداً في يوم من الأيام، وستظل مسجوناً فيها مدى الحياة إلى أن تدرك الوفاة... هل كنتَ آنذاك ترضى بالنجاة؟!

فقلت: نعم... أرضى بالنجاة عن طيب خاطر بكلِّ سرورٍ وامتنان.

فقال لي: تأمّل معي كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

***

وجاءهم الموج من كلّ مكان

لم يكن حادث غرق العبَّارة (سالم إكسبريس) هو الضرّ الوحيد الذي مسَّني في البحر.

فبينما كنتُ أعمل على سفينة البضائع (سالم ناين) في بداية عملي البحري، واجَهْنا نحن أفراد طاقم السفينة إعصاراً بحرياً في فجر يوم ١٤ / ١٢ / ١٩٨٩م، في منطقةٍ في بحر الشمال، اسمها في خرائط الأرصاد الجوية (جيرمان بايت).

والغريبُ أنني كنتُ قد استقبلتُ نشرةً جويةً من إحدى المحطات اللاسلكية الأوروبية في الليلة السابقة، تؤكّد أننا سنواجه بمشيئة الله إعصاراً في الساعات القادمة.

والواقع أنني وإن كنتُ قد أبلغتُ ربّان السفينة آنذاك القبطان (أحمد نبيل حسن إسماعيل) بالفحوى الخطير للنشرة، التي اهتمَّ بها فأخذ كافة احتياطات السلامة، وأعلن حالة الطوارئ بناءً على فحواها، إلا أنني لم أكن آنذاك أصدّق إطلاقاً أننا سنواجه إعصاراً.

فحالةُ البحر لم تكن تنذرُ في ذلك الحين بأنَّ إعصاراً مدمّراً على وشك المجيء، وقد رأيتُ من قبلُ حالاتٍ للبحرِ أسوأَ منها بكثير، وفي مناطق بحرية مشهورة بسوء تقلّباتها الجوية، فلم تعقبها أعاصير.

فالريحُ آنذاك كانت طيبة لينة، والموجُ ما كان مرتفعاً، وتخلو حركتُه من الثورة، والسحب لم تكن كثيفة أو ركامية.

كان الواقع مشرقاً ويبدو بعيداً مئة وثمانين درجة على طول الخط عن فحوى تلك النشرة.

لكن.. ويا للعجب !!.. فلم تكد تمرُّ ساعات قليلة حتى جاءتنا جيوش أمواجٍ عجيبةٍ ثائرةٍ غاضبةٍ تجري نحونا، كانت عالية كالجبال الشاهقة الارتفاع، ومكسوة تماماً بزبد البحر، فبدت

شديدة البياض واللمعان، لم أرَ مثلها في حياتي كلها، تهاجم سفينتنا، تريد أن تفتك بها وبنا.

شعرتُ أنها جبال جليدية جاءتنا من القارّة القطبية الشمالية بعدما دبَّت فيها الحياةُ بأمر الله.

كانت تأتينا جاريةً بعزم الأسود، وخفَّة الفهود، وسرعةِ النمور، من كلِّ مكان، من الجهات الأصلية والفرعية، ومن أمامِنا ومن خلفنا، ومن يميننا ومن يسارنا، بسرعة مخيفة مروعة، وبقوة عنيفة مدمّرة،، هديرُها زئير، وصفيرُ الريحِ المصاحب لها كأنّه نذير قوي مبين.

تلاعبت أمواجُ الإعصار المدمّر بالسفينة الكبيرة الثقيلة مثلما تتلاعبُ الأقدامُ في الملعب بالكرة الخفيفة الصغيرة.

تارةً نشعر أنَّ السفينة التي كان طولُها يقترب من مئة وخمسين متراً ستنقسم منكسرةً إلى نصفين إذا ما رفعها جبلُ موجٍ شاهقِ الارتفاع من منتصف أسفلها فوق قمته.

وتارةً أخرى نشعر أنّها ستنقلبُ حينما تسقط من فوق قمة الجبل، جاريةً فوق منحدره وهي تتأرجح حتى تصل إلى سفحه

وهي تترنّح، فتصبحُ في وادٍ ضيقٍ وسط الجبال، فيرفعها أو يرتطم بها جبلُ موجٍ آخر.

كانت السفينةُ تفقد توازنها أثناء صعودها إلى القمم العالية وأثناء نزولها في تلك الأدوية، فتميل على أحدِ جوانبها بزاويةٍ حادة تقتربُ من القائمة، ممّا يجعلنا نشعر أنها ستنقلبُ بنا.

كنَّا نحنُ أفراد الطاقم نواجه الإعصار بدعاء الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم بالعمل آخذين بأسباب السلامة ثانياً، فكلٌّ منّا يعمل في موقعه، وكان الربّان في غرفة القيادة يقاوم بصلابة.

كنّا نحفظ توازننا، مانعين أجسامنا من السقوط والتدحرج على سطح السفينة، بالإمساك بالجدران أو كل ما هو مثبت فيها.

حرَّكَ الإعصارُ كلَّ سواكن السفينة الحرة، وهزَّ كلَّ ثوابتها المقيدة، وقلب كل الأشياء الموضوعة فيها رأساً على عقب، بل أنَّ بعضنا كان يسقط على السطح ويتدحرج وكأنما كان ذلك السطح المائل دَرَجاً.

أحدُ أفراد الطاقم أُغشي عليه أكثرَ من مرّة، وآخر انهار وتوقَّفَ

عن العمل معلناً الإضراب إلى أن ترحل جيوش الأمواج أو إلى أن تغرقَ السفينة في الماء.

بينما كان الإعصارُ في قمة غضبه وثورته، سمعتُ أحدَنا يقول معلناً للجميع كفّه عن فعل الذنوب الكبار وتوبته إلى الرحمن: «أقسم بالله العظيم أنّي لن أفعل (كذا) ولن أفعل (كذا) ـ مما يغضِبُ الله ـ إنْ كتبَ الله لي النجاة».

فلم تكد تهدأ ثورة الإعصار، ونصلُ بفضل الله إلى برِّ الأمان، حتى سمعتُ نفس الإنسان يحكي لزميل له في الصباح كيف فعل (كذا) وفعل (كذا) ـ مما يغضِبُ الله ربنا ـ في الليلة السابقة مخالفاً قسمه ووعده لله ربه، الذي كشف الضر عنه.

علمنا بعد النجاة أن جيوش جبال الموج في ذلك اليوم قد هزمت عدّة سفن فابتلعها البحرُ بأمر الله، ولم تكتفِ بذلك فقط، بل ألقت ـ ويا للعجب ـ بسفينةٍ كبيرةٍ فوق سطح أحد المباني الجميلة المطلّة على بحر الشمال!

وتسبب الريحُ المصاحب للإعصار في اقتلاع العديد من الأشجار، وتحطيم بعض المباني في بعض الموانئ.

رأيتُ بعيني كيف يهلك الله القرى الظالم أهلُها، وكيف يمكن أن يهلكنا نحن بذنوبنا. فلولا رحمة ربنا لغرقنا كلنا.

إنَّ الله الخبير وصفَ في القرآن الكريم تقلّبات البحر وتأثيرها على البحّارة المبحرين بدقة تذهل الناجين ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

حتى إنَّه سبحانه وتعالى ذكر أنَّ الريحَ العاصف تفاجئ ركاب السفن المبحرة بمجيئها بعد الريح الطيبة (أي: اللينة) التي يفرحون بها، ويجيء مع الريح العاصف من كل مكان موج يغشاهم (أي: يعلوهم)، كالظلل (أي: كالجبال التي تظل من تحتها)، حتى إنَّ ركاب السفن يظنّون بسبب ما يرون من هولٍ أنهم قد أُحيطَ بهم (أي: هلكوا)، ووسط هذا الضر (أي: الشدة والكرب) يوقنون أنَّه لن يعصمهم أحدٌ من الله ولن ينقذهم من الشدة والكرب سواه، فيضل (أي: يُتلف ويُفقد ويُهلك) من يدعون (أي: من يلجؤون إليه) إلا إياه (أي إلا الله)، فيدعونه وحدَه دونَ شريك، مخلصين له الدين (أي: موحّدين له، لا يدعون لخلاصهم سواه)، وهم يقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، فلما نجّاهم إذا هم يعرضون (أي: يصدّون عن سبيل الله، ولا يخلصون له، ويتجاهلون ما رأوا من آياته)، أو إذا هم يشركون (أي: يدعون مع الله إلهاً آخر يحبّونه كحبّ الله)، أو إذا هم يقتصدون (أي: يتوسطون بين الكفر والإيمان)، أو إذا هم يظلمون في الأرض بغير الحق، وكأنهم أمنوا بذلك مكر الله القادر على أن يهلكهم في البر بعد سلامتهم مما مسَّهم من ضرٍّ في البحر، ولن يجدوا حافظاً أو نصيراً يمنعهم من بأس الله. والقادر على أن يعيدهم في البحر مرّة أخرى، فيغرقهم بكفرهم، ولن يجدوا حينئذٍ من يثأر لهم، أو يطالب الله ربهم بما فعله بهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١ ـ ٣٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا * أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٦ ـ ٧٠].

* * *

صور تثير الأحزان

قوارب نجاة غارقة في القاع.. هياكل رماثات نجاة تبدو متلاشية المعالم بفعل الصدأ والتآكل.. راديو وراديو كاسيت أصابهما الصدأ بفعل الغرق ومرور الزمن تحت الماء.. حقيبة مفتوحة ليس فيها ملابس لإنسان أو أية أشياء ويملؤها الماء.. وأخرى ممزقة ومثقوبة منظرها يثير الأحزان.. ونعل فردة حذاء تخلو من الجلد ساكنة في القاع وتشهد على الهول الذي كان ومرور الزمان.. وصندوق مفتوح تبرز منه أشياء لا تُرى بوضوح ما تكاد تراها العين حتى تضع أمامها علامات استفهام.. وآلة كاتبة ساكنة في القاع صمتُها أبلغ من كل ما كتبته من كلام على مر ما سبق من أيام قبل غرقها في الماء.

وبجوار تلك الأشياء ترقد على جانبها الأيمن غارقة في الماء السفينة الكبيرة التي غُطيت مساحات كثيرة من بدنها العملاق بالطحالب البحرية والشعاب المرجانية الذين لم تسلم منهما حتى الدفة والرفاص.

شعار الشركة المالكة المثبت على مدخنة السفينة الغارقة تكاد تخفيه الطحالب والشعاب.. واسم السفينة البارز فوق جانبي المقدمة والمؤخرة بصعوبة بالغة يمكن قراءته الآن تحت الماء.

ممرات السطح كساها الصدأ وأصبح منظرها مثيراً للألم.. هوائيات أجهزة الاتصال والرادار وقياس الأعماق لم تسلم هي الأخرى من الصدأ والتآكل وتلاشي المعالم كما لم تسلم من ذلك غرفة القيادة التي بدت في الصور المعروضة وكأنها كهف يسكنه الجن.

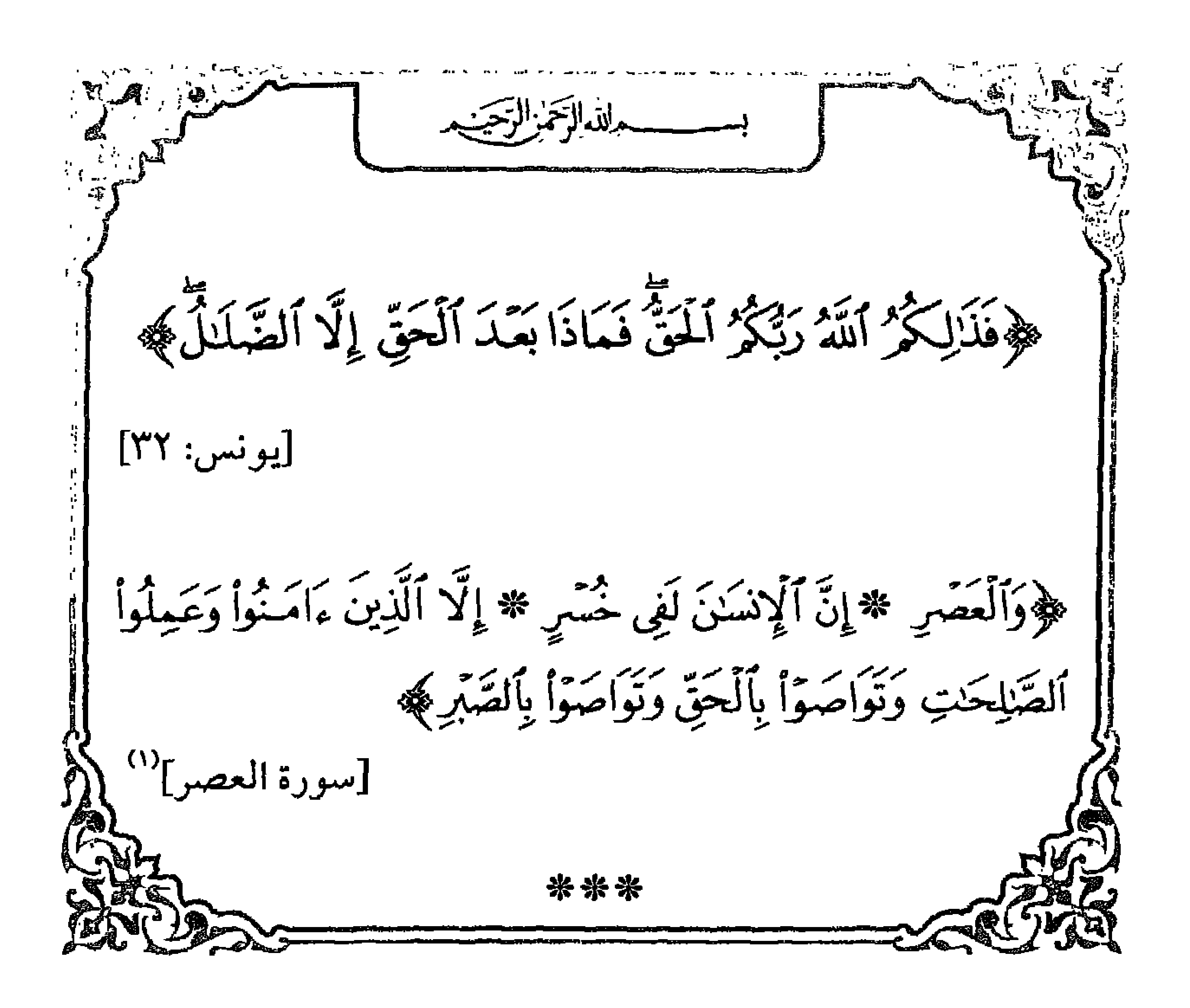
سلحفاة وأسماك وثعبان ماء رصدتها الكاميرات تتجول بين تلك الأشياء التي يبدو بينها الغواص وكأنه رائد فضاء يصور مأساة في كوكب آخر من كواكب السماء وصارت سفينة الركاب التي كانت تضج بالحياة وتضيق بالزحام مثل غار في قاع البحر تحت الماء تتخذه الأسماك كمخبأ تدخل فيه وتخرج منه ببطء بصورة تثير الحزن.

كل هذه الأشياء تظهر في صور التقطت للعبَّارة (سالم إكسبريس) تحت الماء وتعرضها عشرات المواقع الأجنبية على الشبكة العنكبوتية باعتبارها معلماً من معالم الحزن التي يجب أن يراها هواة الغطس الذين يزورون من شتى أنحاء العالم مصر ويغطسون في الغردقة وشرم الشيخ.

بينما كنت أنظر لصور السفينة وهي في القاع غارقة في الماء أخذت تقفز في ذهني صورها حينما كانت مثل مدينة عائمة تضج في النهار بالحياة وتزدحم بالركاب وتتلألأ في الليل بالأنوار وهي في البحر تجري وتشق الماء.. شعرت كأنما تقول بلسان الحال للزوار ولعيون الكاميرات من موقعها في الأعماق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

***

خاتمة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾

[يونس: ٣٢]

﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

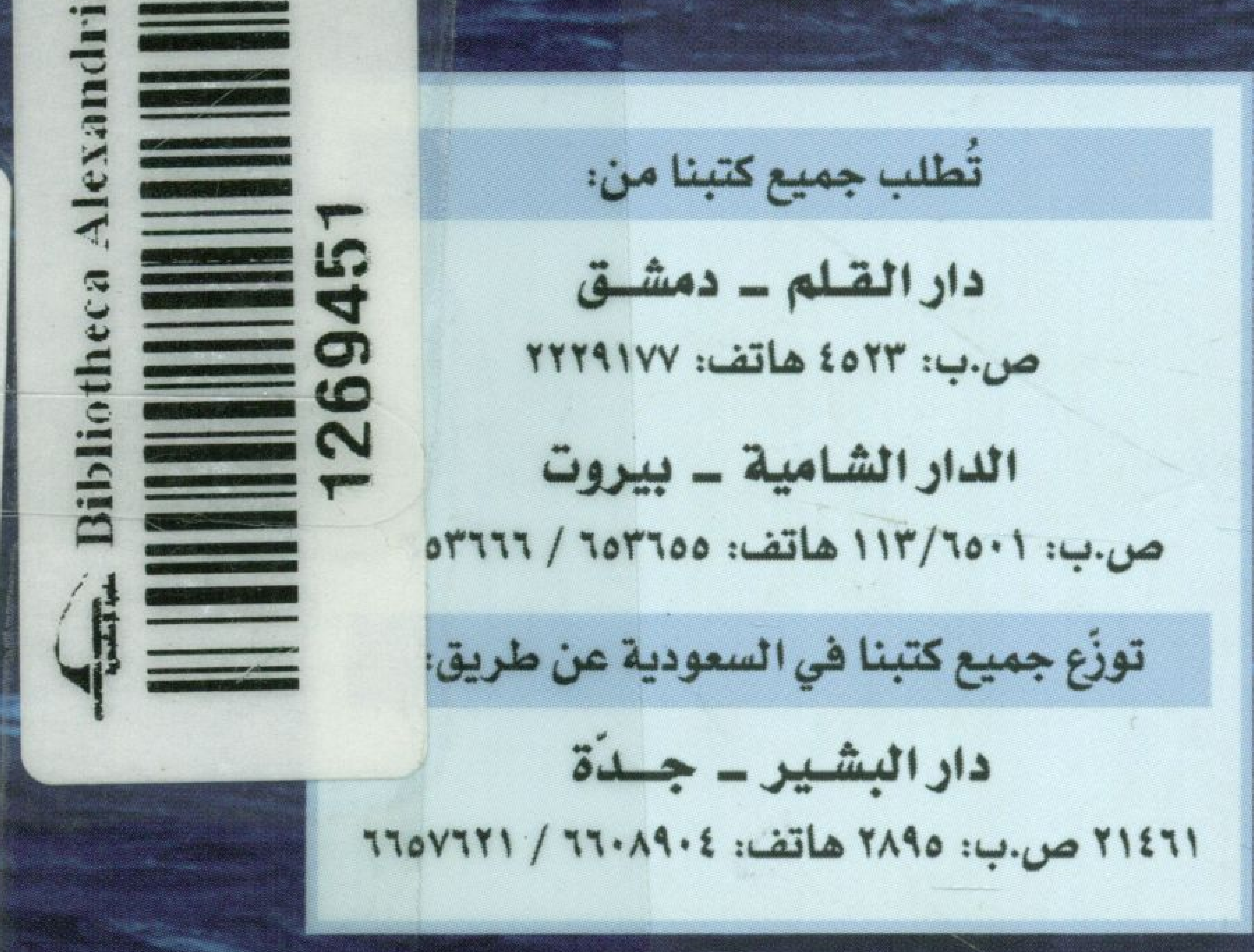
[سورة العصر][1]

***

(١) خُسر: خسران ونقصان وهلكة بسبب الأهواء والشهوات.

وتواصوا بالحق: أوصى بعضهم بعضاً بالإيمان والخير كله.

وتواصوا بالصبر: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الطاعة، وعن المعصية وعلى البلاء.



www.alkalam-sy.com

